# حسين مروّة

## ولدتُ شيخاً وأموتُ طفلاً

سيرة ذاتية في حديثٍ أجراه معه

عباس بيضون

دار الفارابي

**الكتاب:** حسين مروّة، ولدتُ شيخاً وأموتُ طفلاً
سيرة ذاتية في حوار أجراه معه عباس بيضون
**الغلاف:** فارس غصوب

**الناشر:** **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
**e-mail:** info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

**الطبعة الأولى 1990**
**الطبعة الثانية 2012**
**ISBN: 978-9953-71-694-7**

# «ولدت شيخاً وأموت طفلاً»

قد لا تصح تسمية روّاد من جبل عامل على حسين مروّة؛ فالرجل خرج من جبل عامل إلى فضاء الدنيا الواسعة، وله اسم في محافل ثقافية وأدبية على مدى ثلاث قارّات. ولعل جائزتيه تنطقان بذلك، فاللوتس هدية قارّتين و«بيروت» هدية «العرب». والسبعون التي يحملها الشيخ، والثمانون التي تنتظره على المفرق، سنون قطاف وحصاد. فالاعتراف تلو الاعتراف والوسام تلو الوسام والتكريم تلو التكريم. تلك شيخوخة راضية مرضية أنجبت وأخصبت، فاستحقت العيد.

قد لا تصح تسمية روّاد جبل عامل على حسين مروّة لأنه من بين الروّاد جميعاً نجا من ريادة كانت غالباً موحشة وحيدة. لم يجمع موسى الزين شرارة

أشعاره في كتاب ولا تزال محفوظة في الصدور والأفواه. وفرفط عبد المطلب الأمين أشعاره على حانات فرفط فيها عمره. وأسلمت هاشم الأمين عزلته إلى عزلات. ودخل صدر الدين شرف الدين في القطيعة والحصار إلى حدود الهذيان. ناهيك عن الذين حبّروا أكداساً غدت في ذكراهم الأولى أثراً بعد عين، سها عنها ورّاث مشغولون، أو أسلموها إلى حفّاظ أكثر سهواً. وفي الحالين لا يبقى سوى سطر شارد وحكاية على مصطبة ينساها الناس ما إن تغدو، «صور» خلفهم ويستقبلون البحر والطريق إلى العاصمة. روّاد جبل عامل! أية تسمية وأية ريادة في صحراء منقطعة.

أين من هذا المصير رجل كحسين مروّة لا يطرق طريقاً إلّا ويبلغ منه إلى غاية. ضاق بالنجف لكنه شرب الكأس إلى نهايتها. دخل إلى الحزب الشيوعي فلم يضطرب مرة في موضعه. انتقل من الأقصى إلى الأقصى فلم يزل ولم يتلجلج ولم يسلك طريق العودة

الدامية، وفي الستين حلم بمشروع حياته وأنجز أكثره. كتاب باذخ عريض يطوي تاريخ قرون. وأدركته السبعون وهو لا يزال يحلم. سعد بامرأته وأولاده، وسعد بنفسه وسعد بحزبه فكأن يده لا تمس شيئاً إلّا ويحل فيه السعد.

يتكلم على أبيه فكأنه فارق البارحة وعن أمه كأنها لا تزال تفوح في الدار، وعن امرأته كأنه في لقائها الأول، وعن حزبه وقضيته بلا خيبة، كأن الحياة لا تخسر شيئاً. والزمن البسيط المتغير هو ذاته وجه الأبدية.

لا تصح تسمية روّاد جبل عامل على حسين مروّة لأنه نجا منها، لم يصر جنرالاً للموتى. وصل وكان أول الواصلين، خرج من ريادة المنفى إلى لاعودة. خلع الجبة والعمامة، وعلى الرغم من أن الطيّون بقي في أنفه والأب الغائب لا يزال يلقّنه، إلّا أنه أعطى للطيّون ما للطيّون وحمل أيقونة أبيه لا في بيروت وحدها ولكن على مرافئ وموانئ بلا حصر. لقد

انكسرت المصطبة وانفضّ المجلس، حسين مروّة حمل المصطبة في قلبه، وبعده سيأتي شبان لا يطمحون للريادة ولا يبالون إذا رأوا المصطبة مكسورة في قلوب الآباء.

# لهب يتصفى ويشتعل،
# حتى النهاية

عرفناه شاباً في السبعين. رفيعاً منصوباً، يبتسم بعينيه أكثر من فمه. يغضي إذا تكلم ويغضي إذا أصغى. بهذا الحياء الذي تصفى من أجيال واستحال تقليداً وإرثاً. وبذلك اللطف الذي يشيع كالحرارة ويرد الجلسة أنيسة حميمة والجليس قريباً أليفاً. وما كان لامرئ أن يدخل دار حسين مروّة وينكفئ عنها إلّا وقد نال نصيباً من كرم أهلها. فهنا يقسم صاحبها جسمه في الماء والخبز، في الشراب والطعام. وهنا تجري الصداقة مجرى الماء والخبز. فأبو نزار العاملي النجفي المناضل لم يخرج من عامليته ولا نجفيته. أضاف من عامليته ونجفيته عمراً وعراقة لما صار إليه. لم يخن أيّاً منهما وإنما كانت حياته أمانة متصلة وإيجاباً متصلاً. فكأنه لا يزال وهو في سبعينياته وحزبيته يحقق وصية

أبيه وحلمه. لقد خلق ألوفاً كما قال المتنبي ووفياً. وكان القبول جوابه منذ أن انتزع من طفولته ولذاته إلى أن أقعد مقعد الشيخ، فالمفكر والمناضل. قال نعم كلما امتحنته الحياة أو دعته، فكأنه كان يعلي حياته طبقة وطبقة لا ينكر أياً منها ولا ينحيه. لم يكن الانكسار من خلقه ولا طبعه. لذا بنى كل عهد من حياته بلبنات غيره فارتفعت حياته مرصوصة بكل طبقاتها مشيدة بكل طور فيها. كأن كل طور فيها يؤكد الآخر ويثبته بدلاً من أن ينقصه وينفيه.

***

ترددنا قبل أن نلتقي بحسين مروّة، فالرجل من الشيوخ وهو إلى ذلك من حراس العقيدة، وحراس العقائد كانوا في نظرنا مقطِّبين صارمين حرْفيين وحين تعرفنا إليه وجدناه شاباً في السبعين. فالرجل الذي تعمم في طفولته وأهدرت تحت وقر العمامة طفولته كان ينتصب ممشوقاً رشيقاً في إهابه الأنيق. يبتسم بعينيه كلما صادفتنا عيناه. ويتكلم خفيض الصوت

كلاماً مرسلاً يتحاشى الرصف والرص. يتكلم كالمعتذر وهو يغالب حياءه ولربما استعصت عليه عبارة أو تعثّر بها.

لم يكن الرجل من كرادلة العقيدة كما حسبنا، كان في كلامه خيط لعثمة وارتباك أين منهما قطْعنا وحسمنا، وكان فيه تربية وأدب كنا نظنهما ذلك الحين من غير صفات المناضلين. وكان فيه حنو لم نكن نحسبه لأهل العقيدة. ولعلنا أحببنا الرجل وشعرنا أن السهرة في مجلسه تبقى على رسلها بل وتزداد بحضوره سهولة ويسراً.

كنا نقرأ عليه بعض ما نكتب. أذكر يوماً كنا فيه عنده وأحدنا يقرأ وقد سلخنا من السهرة هزيعاً أو أكثر، كان يصغي رفيقاً حذراً، يزن الإيقاع والصوت وتلمع عيناه لكلمة وتبش لأخرى. بل كان وحده الذي انحنى بكليّته للإصغاء وانقطع له. أما باقونا فكانوا بين النفثة والرشفة يصغون للكلام يأتيهم من بعيد ويأتيهم من قريب ينسونه ويعودون إليه. أذكر أن «أبو نزار» بشّ للشعر وأثنى عليه وصاحبه، فعل ذلك بكرم وإيجاز

كأنما يخشى على الشاعر أن يجرح تواضعه. قليلون أولئك الذين يغتبطون بالسماع اغتباط أبي نزار، فهو من رعيل كان الكلام فاكهته ورخاءه والسماع رياضته. من رعيل كان أفراده يقيمون في الكلام ويكبرون فيه، ذلك يذكّرني بسهرات عاملية تجتمع فيها الحلقة حول الشاي وتأخذ من لونه وبخاره وسخونته ألواناً ووهجاً ودفئاً، وكان الناس ينتقلون بين القصائد ويأخذهم سرى الشعر ومعراجه إلى مناطق وحواضر وعواصم وأسواق. يسمعون بين النفثة والرشفة ويطيّبون ويستعيدون وما كان لأحد أن يعرف كيف تتصل هذه المتعة اتصال الليل إلى أن يتنفس الفجر على السمّار والسّهارى.

أذكر كيف كان في الحشد والمهرجان(*) يجلس ـ آنق ما يكون ويسهر إلى أواخر الليل مغتبطاً خفيفاً رفيقاً قلّما يبادر إلى كلام لكنه يصغي بعينين تبشّان

(*) أيام المؤتمر الثالث عشر لاتحاد الأدباء والكتّاب العرب عام 1981، في عدن ـ والعشاء كان في قصر الرئاسة.

للكلام وتتابعانه ببسمة وحلم. كان في وجهه يومذاك رفرفة سعادة واكتفاء لا أظن أننا نراها إلّا على وجوه الأطفال.

كان العشاء في ساحة القصر والناس إلى الموائد، وعلى مصطبة في الناحية جلس عازفون ووقف راقصون. وكان أبو نزار أول من ترك المائدة وصعد إلى المصطبة ووقف يتابع الموسيقى بقدميه وقامته، كان يرقص وحيداً مكتفياً بنفسه وتوقيع قدميه وفرحته التي انتظمت نفسه وجسده، ما كان أقرب وجهه إلى الرضى وأدناه إلى السعادة والقبول والتحية. لكأنه يزداد ماءً وطراوة كلما أسنّ واكتهل، وما كان لبياض شعر أحد أن يردّك إلى الشباب، بمقدار ما كانت تفعل لمّة أبي نزار البيضاء كأنه وهو يمضي في العمر يسلك إلى يفاع دائم، أو كأن فصول حياته خرجت عن تربيتها فبدأت بطفولة جافة وشباب شحيح ولم تنضر وتمرع إلّا في شبابها الثاني.

***

خرج أبو نزار من جبل عامل إلى النجف، طريق سلكها أبوه وسلكها كثيرون من صحبه: صدر الدين شرف الدين، علي الزين، محمد شرارة، هاشم الأمين، محسن شرارة، لكأن الطريق إلى النجف كانت حج العامليين وفريضتهم. لكنها على طولها وخشونتها أهون على أهلها من الطريق إلى بيروت ودمشق. فالأولى رحلة إلى الأمان يقتفي فيها الأبناء خطى الآباء، يقفون حيث وقفوا ويحلّون حيث حلّوا. يمشون على حدائهم وذكرياتهم، تلك هجرة إلى الداخل أمّا الثانية فهي على قربها ودنوِّها تغريب وخبط في مطارح لا نهتدي فيها بعلم السلف ولا ذكرياتهم. تلك هجرة في الخارج ودونها آلام وتيه وانتفاء من الأصل والنفس. وقد أورثت هذه الهجرة من سعَوا إليها ندماً وصمتاً، أو اختلالاً أو عبثاً ويأساً، وأبو نزار من القلة التي أسلمتها الهجرة الأولى إلى الثانية من دون أن تختل في موضعها

وغادرت من دار الأمان إلى الغربة من دون أن تنقسم أو تتشظى أو تنتفي من نفسها.

***

كم فاجأني أن يقال لي إن الرجل تهدّم في أشهر قليلة فما عادت قامته تحمله وانهدت يده وارتخت أنامله عن القلم فما عاد يكتب إلّا بالجهد. تأخرت عنه أشهراً وتلمّستُ أخباره من أقارب وأصدقاء كانوا يلتقون، على أن الشيخوخة ظفرت به أخيراً وأن شبابه خانَه وأن العمر قد تنفس في وجهه دفعة واحدة. ولا أنكر أنني خشيت على رهاني أن يخسر، فقد راهنت على حياة تتقوّت من نارها ولهبها إلى أن تحترق بكل ما فيها ولا تقدّم للموت شيئاً. وها هي الشيخوخة تنقل برد الموت وثلجه إلى ساحة العمر، وها هو الموت يملك ويغلب قبل أوانه. ولربما كنت مع كثيرين نؤْثر أن نرى أبا نزار وهو في سبعينياته يقوم خفيفاً إلى الحلبة ويرقص وحيداً وسعادته تنوِّر حواليه.

تأخرت عنه أشهراً ثم خطر لي أن أزوره لحديث طويل؛ فأنا أعرف أنه كان مزمعاً على كتابة سيرته وقد هيأ عنوانها «ولدت شيخاً وأموت طفلاً». قلت أذهب فأنوب عنه في كتابة هذه السيرة وأستدرجه إلى روايتها في حديث شاسع. هكذا ذهبت واستقبلني أبو نزار بقامة تغالب ارتجاجها لكنها تنجح في أن تنتصب ثانية. وبيد تعاند ارتجاف أناملها لكنها تحسن أخيراً أن تثبت، وبفم يقاوم احتباسه لكنه يملك في النهاية على الكلمات، هوذا كما كان دائماً مصارعاً لا يتعب. وقد صار إلى صراع مع قامته وراحته ولسانه، صراع لكل لحظة ولكل يوم. وهو مع ذلك لا يستسلم بل يملي على جوارحه وحده صلحاً لكل لحظة ولكل يوم. جلست مع أبي نزار أياماً وساعات وهو يتذكر ويروي. ويستدعي ويتداعى وأنا أصغي وأسجل(*) لكنني ما عدت بعد الساعة الأولى أنتبه لقيامه وقعوده الصعبين

---

(*) الحديث نشر في «السفير» على ست حلقات ابتداءً من 18/ 9/ 1985.

أو ألتفت لما يعتري يده أو لسانه في أحيان. كان ذلك عطلاً ثانوياً، والمهم أن الرجل الأمْيَل إلى الصمت والإصغاء تكلم ساعات وأياماً بطلاقة وإسهاب لم يكن له بهما طول عهد. رسم صوراً لأشخاص وأمكنة وأزهار ونباتات. كانت ذاكرته تمر بطفولته المهدورة وشبابه. وكان الكلام ينبجس ويتفتح ويخضر. قلت عندئذ إن رهاني لم يخسر، فالأهم في الرجل أنه نجا وسلم ولا تزال الحياة مقيمة فيه على حالها لم تسلِّم للموت شيئاً.

هل يعلم القاتل أنه سفك في حسين مروّة عاملياً ونجفياً بالمقدار الذي سفك فيه يسارياً؟ هل يعلم أنه وهو يسدد إلى حسين مروّة الذي كان أزمع أن يبدأ من صباحه مجلداً جديداً كان يدثر الرجل بلهبه الذي ظلَّ يتصفى ويشتعل إلى آخر لحظة فيه؟

ويا شيخي يا أبا نزار.

اسمح لي أن أتذكرك بفرح.

كان مضى عليّ وقت لم أره. بلغني أثناءه أن الرجل شاخ فجأة واهتز عوده وعرته لعثمة وارتجاف وعسر حركة. ولم تكذِّب عيناي ما سمعته. وقف للقائي، فأعسرته العودة إلى مقعده، وتكلم بلجلجة. ولم يكن على كل حال كثير الطلاقة في كلامه. إذ طالما حبس صوته حياءً مقيم. لم يتردد في الموافقة على إجراء حديث طويل يتناول سيرته كلها. لكنه تساءل إذا كان سينشر مهما بلغ. جلسنا أول مرة للحديث، ولم تطل حيرته. خيّل إليّ أن حبسته زالت فجأة واستقام لسانه وأسلس كلامه. أو أن سريان الكلام واسترساله صرفني عن التوقف عند حبسة اللسان وتلجلجه. تكلم على طفولته. فكأنما يغرف من بحر، صور تؤاتيه بسهولة فائقة وتحفر بروائحها وألوانها. تكلم بالعامية ولم تكن هذه عادته. ربما كان ذلك من آثار تعبه. طالت الجلسة إلى عدة ساعات، وتبعتها جلستان تاليتان تراخى الوقت بينهما قليلاً. كنا نمضي خمس ساعات وأكثر في الجلسة الواحدة، فيصبر على ذلك ولا يفضي بتعبه إلّا وقد بلغ أشده. كان في الغالب خجولاً بما صار إليه، وخصوصاً في عيون أشخاص لم يعرفوه إلّا في فتوّته التي طالت إلى السبعينيات. وربما غالب تعبه لكي لا يحرج ضيفه. في الجلستين التاليتين قلّ تدفقه، كلما ابتعد عن الطفولة، ودخل في العمر الراشد، في الصورة التي هي له الآن، غلبه تحفُّظ واحتياط وهو يتناول مواقف حزبية وسياسية، رغم أنه حتى في هذه سعى ليكون على رسله. لكن كان دون ذلك مواضعات راسخة. كنا ننهي الجلسة بالتحلق حول مائدة عامرة. طلب مني أن أعرض عليه الحديث بعد صياغته. وقد عرضته فكان يستبقي حلقاته عنده ويعيدها وعليها تنقيحات قليلة لا تعدو مفردات متفرقة، ولم يكن داعيه لذلك في الغالب سوى التحفظ، فقد كان يرد مفردات جموحاً إلى قدر من الاعتدال، ولم تخرج هذه من يده إلّا وهو مشفق من أن تضيع ولا تعود إليه.

عباس بيضون

# الحديث

□ **متى ولدت؟**

ـ ولدت بحسب الهُوية عام 1910، لكن والدي سجل بخطه أنني ولدت عام 1326 هجرية ويوازيها عام 1908 ميلادية. أنا اليوم في السابعة والسبعين. ولدت في قرية «حداثا» من قضاء بنت جبيل في جبل عامل.

□ **هل تحدِّثنا عن أبيك؟**

ـ كان والدي، الشيخ علي مروّة رجل دين. وكان رجال الدين وعامة الناس يقدرونه ويكرّمونه لما عرف به من نزاهة وترفُّع وعزة نفس، ولاجتنابه محاباة الزعماء والإقطاعيين، ولورعه الديني، وهو تلقّى علومه في النجف، شأن كل رجال الدين العامليين ذلك الوقت.

**□ هل كانت له صلة بالأدب والكتابة؟**

ـ ترك ديوان شعر مخطوطاً أضعته عن غير قصد. وكم أسفت لذلك، أعرته لصديق كان مهتماً بالكتابة عن شعراء جبل عامل. فأهمل الكتابة ولم يحسن حفظ المخطوط فضاع. لكن والدي كان معروفاً بين شعراء جبل عامل، وشعره موضع استحسانهم وله صداه في المجالس الشعرية والثقافية في جبل عامل.

**□ كيف كانت تربية والدك لك؟**

ـ لأنني كنت موضع آمال والدي ولأنه يُعدُّني لأكون خليفته في عمله الديني، فقد أخضعني لتربية صارمة النظام والطريقة، الأمر الذي طبع حياتي كلها. ومن جملة ما أصابني من هذه التربية حرماني الكلّي من طفولتي. فقد انتزعت منها وأنا في الثامنة، وفرض عليَّ من يومها زيّ رجال الدين (العمامة والجبة) الأمر الذي جعلني مضحكاً في عيون أقراني. لذا اجتنبتهم وقصرت صحبتي على والدي وعشرائه وزواره. كنت

ضيِّقاً بمظهري وزيّي متنبهاً لما فيه من مفارقة. لذا كنت أخفي نفسي عن رفاقي وأهل جيلي وأخجل من لقائهم، مما أورثني خجلاً من الظهور في الاجتماعات العامة لا يزال متأصلاً فيّ. فأنا حتى اليوم أتهيب المجالس والاجتماعات العامة وأنفر منها.

أورثتني تربية الوالد حياء مقيماً لكنها تركت فيّ خصالاً حميدة منها عزة النفس والترفُّع عن الدنايا والتورُّع الخلقي عن كل ما يدنس النفس ويُعيب سيرة المرء وسلوكه وتهذيب النفس واللسان، فأنا حتى اليوم لم تجر شتيمة على لساني وقد انتقل هذا مني إلى أولادي. أذكر في هذا الباب أننا أقمنا في حيّ سنّي في العراق فكان أهله يستغربون من أن أياً من أولادي لا تجري على لسانه شتائم لبعض الصحابة مما كان دارجاً على ألسنة أترابهم الشيعة في ذلك الحين. وقد ساقهم هذا إلى الظن بأننا من أهل السنّة.

□ **كيف كنت تمضي أوقات طفولتك؟**

ـ هذه الطفولة الصعبة علّمتني الصبر على المشاق.

فقد كان عليّ أن أقوم بأعباء الضيافة للضيوف والزوار الكثر الذين يؤمّون منزلنا، إذ كنت الوحيد المكلّف بذلك. إلى ذلك كنا نقتني بقرتين وحماراً وفرساً، وأحياناً بعض الماعز. وكان عليّ أن أقوم برعيها وسقايتها. كنت موكلاً بإطعام الفرس وسقيها. وفي أحد الأعوام درست محصولنا من القمح والشعير عليها وعُدَّ ذلك شذوذاً. فالعرف أن الخيل لا تصلح للدراسة بل لأكرم من تلك الأعمال.

من جملة المشاق صحبتي الوالد في تجواله على القرى التي كان يدعى إليها. في هذه الأسفار كان يذهب راكباً على الفرس وأنا أرافقه ماشياً. اعتدت المشي، مما سهّل عليّ بعد وفاته أن أسعى على قدميّ إلى القرى التي تُعقد فيها حلقات للدرس.

تعلمت في طفولتي مكابدة الحرمان، وتكلّفت منذ حداثتي مسلك الكبار. من هنا كان عنواني للسيرة التي كنت أزمع كتابتها، «ولدت شيخاً وأموت طفلاً».

**□ كيف كانت مدرستك الأولى؟**

ـ تلقيت دروسي الأولى في المدرسة الرسمية في حداثا، وكان معلمها السيد علي الحسن نور الدين من جويا. كنا نتعلم القراءة والكتابة وغير ذلك. قبل ذلك درست القرآن لثلاثة أشهر. ولم يسبق لي أن دخلت كتّاباً. أمضيت في المدرسة سنة واحدة وكان أكثر ما استلفتني فيها الخط. فقد كان خط السيد جميلاً، وكنت أتأثره في ذلك. كنت دوماً شغوفاً بالخط الجميل، والرقعي بشكل خاص.

**□ هل درست على الوالد؟**

ـ لم أدرس عليه مباشرة لكنني كنت أنصت للأحاديث التي تجري بين زواره وجلسائه وكان بينهم رجال دين وفلاحون وسياسيون (زعماء تقليديون ومنهم كامل الأسعد الجدّ وأفندية آل بزّي). كنت أصحبه في زياراته التي تستدعيه إليها، شأن رجال الدين في زمنه، مناسبات دائمة. وفي كل ذلك لم يتوقف الطفل

الذي كنته عن الإصغاء إلى أحاديث تطال موضوعات شتى في الدين والأدب وحياة الناس.

لم يكن النقاش الديني يستهويني في ذلك العمر أو يقع في نفسي بمقدار ما كان يفعل حديث الشعر. فوالدي لكونه شاعراً كان يؤْثر حديث الشعر ويميل إلى الخوض فيه وينشد رقيقه ويترنح طرباً وهو يتلو من شعره أو شعر غيره. قد يكون هذا أحد البواعث الخفية على حبي للشعر والأدب.

□ **وحديث السياسة؟**

ـ كثر الحديث في السياسة في أخريات حياة الوالد. تلك كانت أيام الانتداب الفرنسي ومقاومة الاحتلال (صادق حمزة وأدهم خنجر) وأخبار التهجير القسري لأهل بنت جبيل بعد قصفها إثر أحداث عين إبل.

□ **ما هي الأسماء التي كنت تلتقطها من مجالس الوالد؟**

ـ كان يتردد ذكر شعراء عامليين كالسيد حسن

محمود الأمين، والشيخ إبراهيم يحيى صادق، وعبد المحسن الصوري.

□ **ماذا تذكر أيضاً عن خصال والدك؟**

ـ كان مشغوفاً بالطبيعة، أنشأ حول البيت حديقة زرعها بيديه وغرس فيها من كل أنواع الفاكهة، ولو شجرة واحدة. أما باحة الدار فقد كانت مرصوفة بأحواض الزهر لشتى الأزهار. من الذكريات الحبيبة إلى نفسي أن والدتي كانت تستيقظ باكراً لتشك بأزهار الياسمين الأغصان الرقيقة الجافة «للفاقوع» بعد أن تيبس وتسقط عنها أزاهيرها. والفاقوع نبت بري مزهر زهرته حزمة أزاهير صغيرة تتوزع في شبه هالة شمسية حول الغصن الأم. كانت والدتي تشك مع الياسمين أزهار العنبر الصفراء، وتقدم كل ذلك لوالدي. أذكر أن إفريز نافدة غرفته كان يفوح برائحة الأزهار والنباتات الزكية والحبق التي امتلأ بها. ولا تزال هذه الرائحة كلما عبقت تردّني إلى طفولتي. ولا أزال حتى الآن بالروح ذاتها أنتظر تفتُّح الأزهار.

وعلى الرغم أن الحمضيات ليست من نبات الجبل فقد كانت لدينا في الدار شجرة بوسفير نضع من أزهارها في الشاي ليطيب طعمه.

ربما كان لذلك أثره في حبي للطبيعة وإلفتي لها فلا أزال أحب أن يكون في بيتي زهر وزرع. ربّما تأثرت في ذلك بتجربتي في رعي المواشي ومواسم الحصاد وبين الحقول والزرع والفلاحين. فقد كنت بحسب دورة الحياة القروية أميز بين الفصول والأوقات. أعيش العام فصلاً فصلاً وشهراً شهراً. كنت أكره فصل الشتاء ولا أزال. أكره الليل، أبتهج للصباح وأكتئب للمساء.

يتملكني الفرح بقدوم آذار، ولا يزال يربطني مثَل فلّاحيّ «في آذار طلّع بقراتك للدار» أي أن البرد ولّى.

كل ذلك شدني إلى الطبيعة ولا أزال كذلك على الرغم من بعدي عن الريف والطبيعة. أحببت أكواز التين الأخضر لشكلها مذ كنت أنا وأخي ننطر «من النوطرة» التينات لحمايتها من اللصوص. أذكر بحنين

الحصى التي كنا نلعب بها، وحين أتمشى الآن كعادتي كل صباح صوب الروشة ألاحظ الأعشاب البرية وخصوصاً حين تبدأ باليباس وتضوع منها إذذاك رائحة نفّاذة تردّني إلى طفولتي. مضت عليّ عشرة أعوام لم أرَ فيها الطبيعة.

شيء آخر عن والدي، كان أنيقاً، وكان لذلك يكلف أمي أن تعاود مرة بعد مرة خياطة القنباز حتى يرضى أخيراً عنه، بالإضافة إلى ذلك كان يفوح نظافة، أذكر أنهم طالما أخذوا عليّ أناقتي أثناء دراستي في النجف.

كان أبي كلما عزم على سفر، جهّز في صندوق صنعه بيديه عدّة الشاي من إبريق وسماور وكؤوس، ولا ينسى حتى المنشفة؛ فلم يكن للفلاحين عهد بالسماور، ولم يكن بد من ذلك ليتاح له أن يشرب الشاي كما يحب، وحين أكون في صحبته كنت أعمِّر الشاي وأدقّق في مقاديره وأطمئن لنظافة الكؤوس ممّا أكسبني باكراً ميلاً للترتيب والدقّة.

بنى والدي بيديه غرفتين ملحقتين بالدار وعاونته في ذلك. ورفع بيديه حيطان الحاكورة وشاركته في بنائها.

كان مثال الأريحية والأناقة والنظافة والاهتزاز للشعر والأدب.

أورثني ذلك الخجل الذي دمت عليه ولا أزال حتى اليوم أتردد في الارتجال وأوثر الصمت إلا حين يكون الكلام لازماً.

**□ هل من صور أخرى من الطفولة؟**

ـ لكلمة النبع صدى فرح في نفسي لأنها تذكّرني بنبعات الضيعة، والنبع يردنّي إلى الليطاني الذي طبع حياتي لأن أمي كانت في الزرارية والطريق بين حداثا والزرارية تمر في الليطاني، ولا بد للعابر فيها من خوض النهر ليتاح له إكمال الطريق. النبع والليطاني والنهر صور تهزني حتى حين أشاهدها في التلفزيون.

لا أنسى يوم عبرنا بين حداثا والزراريّة في ليلة مقمرة ورفع ابن عمي عبدالله صوته الجميل بالعتابا.

أذكر أن الفجر طلع علينا ونحن نجوز قرية «النفاخية». كنت أحب هذه الطريق لسبب آخر هو أن والدتي من الزرارية.

□ **حدثنا عن والدتك**

ـ كانت جميلة تعلّق بها والدي وأحبها أهل ضيعتنا. فقد كانت كريمة، تحب الناس، كنت وحيدها، ولي من أبي إخوة كثر. فقد كان والدي مزواجاً وتركت له كل من نسائه الثلاث ذكراً واحداً وأكثر من ابنة.

كانت أمي تجيد الطبخ ولا أزال أحب أكلاتها لمجرد أن أمي كانت تطبخها.

أذكر أنها حين تعزم على الذهاب إلى الزرارية تُعِدّ هدية لأهلها من كعك وبعقات. لتعود من الزرارية الخصبة بفواكه وخضار.

أحببت الزرارية ولا يزال لصخورها، وحتى لأعشابها البرية وقع خاص في نفسي. أحببت فيها

حتى رائحة الطيّون النفاذة غير الزكية. ومن وقت رفعت غصناً من جبّ طيّون وتنشقتها فيه. أورثتني الوالدة حب أهل الزرارية.

كانت العائلة تحبها، تناديها «أم حسين» ثم صارت «الحاجّة سكنة». لم يتجاوز والدي الخمسين أما الوالدة فعاشت بعده عشر سنين وتوفيت وأنا في العشرين (كنت مع ذلك أباً)، توفيت على يدي في الزرارية. ولا أنسى ما عشت هذا المشهد.

□ **كيف كانت تربِّيك؟**

ـ كانت قاسية عليّ لتضبط سلوكي، في هذا كانت تعين الوالد على خطته.

□ **ألم تكن تسنح لك فرص زوغان وتفلت؟**

ـ كنت أقضي نهاري مع الوالد. أعلف الدوابّ في الصباح، وأسرّح القطيع مع الراعي وأسقي الفرس وأعلفها. وأهتم بالزوار وأقضي ما تبقى من سحابة النهار مع الوالد وزواره. وحين كنت أغيب لقضاء

حاجة ولو لشراء غرض كنت عرضة لحساب دقيق ومراقبة، وإذا تأخرت جوزيت بقتلة على الإليتين من الوالدة وكان ضربها موجعاً.

**□ ألم تتعلق بك أكثر مما يجب كونك وحيدها؟**

ـ لم تدللني على الرغم من كوني وحيداً، ولم تتعلق بي أكثر من المعتاد، كنت أخضع لنظام تربية صارم، لذا لم أتعود ملازمة الوالدة والتشبث بها، روّضت نفسي مبكراً على لون من النسك والتقشف في كل شيء حتى في العاطفة، لذا كنت أصبر على الفراق وأتحمله.

**□ متى توفي والدك؟**

ـ توفي وأنا في الثانية عشرة من عمري.

**□ هل حالت الوفاة دون تحقيق ما كان رسمه لك من طلب العلم الديني؟**

ـ بعد وفاة والدي لم يبقَ لديّ أمل في السفر إلى

النجف، وخلافة أبي في منصبه الديني، لكنني نذرت نفسي لذلك وصممت على تحقيقه بأي ثمن. كنت أريد أن أحقق آمال أبي فيّ ولو انقطعت بغيابه، لذا نهضت من فوري وبدأت أؤم حلقات الدرس في القرى. أعانني على ذلك ابن عمي الشيخ أحمد مروّة (أبو كريم مروّة) الذي رعاني في غياب والدي وقام لي مقام الأب وظل على رعايته حتى سفري إلى النجف وعودتي منه. لذا شعرت حين توفي كأني أشيّع أبي ثانية. كان الشيخ أحمد قد تلقّى العلم الديني في مدرسة السيد جواد مرتضى أيام العثمانيين وأعفي لذلك من الخدمة العسكرية، وعائلتنا على كل حال من العائلات التي تشتغل بالشعر والأدب وعلوم الدين. كان يرتدي عمامة على طربوش ويتذوق الشعر، قراءة وسماعاً ويلمّ إلماماً حسناً بالنحو والفقه. وبهذه الروح واصل تربيتي. كنت أستشيره فيمن أدرس عليه من الشيوخ. فلم تكن هناك مدارس للعلم الديني، وإنما شيوخ ندرس عليهم منفردين. في بنت جبيل وحدها

كونّا مدرسة الشيخ علي شرارة، منّي ومن محمد شرارة والسيد عبد الرؤوف فضل الله (والد السيد محمد حسين فضل الله).

□ **ماذا عن الأساتذة؟**

ـ كان الشيخ علي شرارة شاعراً على علم وخُلُق مميزين. كانت صلته بتلامذته أبوية، فقد كان صديقاً إلى كونه معلماً، وظل حبي له الذي تحدّر منه إلى أولاده قوياً حتى وفاته. كان فاضلاً بحق، أما السيد حسن محمود الأمين فقد كان عالماً كبيراً وشاعراً كبيراً. ترك أثراً قوياً في نفسي وبقيت لي من هذه الفترة ذكريات كثيرة عنه وعن شقراء البلدة التي يقيم فيها، ولعل تلك الفترة صيَّرت من كل آل الأمين أصدقاء لي. كان السيد حسن رقيق الخلق والشعور وهذا ما كان يشفّ عنه شعره الفائق الرقة. كان يشجعني بلا حساب، ويغتنم أي لمعة ذكاء تفد عني ليفعل ذلك، مما قوّى عزيمتي وثقتي بنفسي. درست

في حاريص على يد الشيخ يوسف فقيه ألفية ابن مالك.

بعد المشايخ التحقت بمدرسة الزرارية الرسمية وكان معلمها أحمد حجازي (ابن البادية) الشاعر. وكان له عليّ تأثير متعدد الوجوه. فقد أشعرني باعتزازه بوجودي في عداد تلاميذه وحببني بالحساب حتى بت متفوقاً فيه. كان ابن البادية شاعراً معروفاً، منظوراً في قريته، يعود إليه الناس في شتى قضاياهم حتى الخاصة منها. ولم يصل إلى هذه المكانة إلّا بجهده وعصاميته، فقد نشأ يتيماً كما حدثتني أمّي عنه. ولم تصرفه الأعمال التي زاولها لكسب عيشه عن تعليم نفسه. تذكر والدتي أنه كان يتردد على بيتنا ويحظى بعطف والديّ. تذكر أنه كان يبحث في الأزقة عن ورقة مكتوبة لينظر فيها. هكذا صار شاعراً ومثقفاً وملماً بالتاريخ والكيمياء والشعر والأدب وتوصّل إلى كتابة مقالات في حقول شتى منها الكيمياء في العرفان. زادت أحاديث أمي عنه من اعتباري له، كذلك علمني

احترام الناس له وإقرارهم بمكانته العلمية وعلوٍّ مقامه. فقد كان آل الأسعد على عنجهيتهم يقدرونه ويعرفون فضله. كان بذلك قدوة لي. والغريب أنه كان يقرأ من شعره عليّ على الرغم من صغر سني وتلمذتي.

أمضيت عاماً في مدرسة الزرارية انتقلت بعدها إلى مدرسة النبطية. وكانت مدرسة تزاوج بين التعليم الديني والعصري ـ وهي في أصلها مدرسة أسّسها السيد حسين يوسف مكّي وما لبث يوسف بك الزين أن جددها بعد أن كانت مهجورة وأوكلها إلى الشيخ محمد رضا الزين ـ وحين دخلتها كان فيها فرعان عصري وديني، الأول يديره حسين شمس والثاني يديره الشيخ محمد رضا الزين. وقد زاولت في تعليمي بين الفرعين، أما الشيخ محمد رضا الزين فقد كان بالغ اللطف يحبوني بعطف خاص. كانت داره شأنها شأن دار الشيخ سليمان ضاهر أو الشيخ أحمد رضا ملتقى كبار نازلي النبطية من علماء وغيرهم. وكان الشيخ يقدمني إلى زواره ويصحبني في زياراته. أذكر أن الشيخ أحمد رضا قدمني للسيد محسن الأمين في

إحدى زياراته فامتحنني السيد بإعراب آيات قرآنية بينها كما أذكر «وإنما يخشى الله من عباده العلماء» وراقته أجوبتي الصحيحة. كنت آنذاك في السادسة عشرة وكانت هذه اللقاءات بداية صلة وثيقة بالشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ضاهر.

كنت في النبطية منقطعاً للعلم. ففيها أتممت دراسة الألفية وقسماً من مُغني اللبيب لابن هشام وبدأت المنطق بالإضافة إلى مبادئ الفرنسية والحساب في المدرسة العصرية. كان عمري قد بلغ السادسة عشرة وكان عليّ أن أيمِّم للنجف.

**□ ماذا قرأت إلى جانب ذلك؟**

ـ الغريب أنني لم أعمد في ذلك الوقت إلى قراءة الأدب والشعر، كان أول ما قرأته الإمامة والسياسة لابن قتيبة. اخترته لسبب لا أذكره وأمضيت وقتاً في عشرته ولا أزال أذكر إلى اليوم غلافه الأحمر وورقه الأصفر، وطباعته غير الحجرية. ذلك كان الكتاب الوحيد الذي قرأته قبل رحيلي إلى النجف، بلى قرأت

إلى جانبه أعداداً من مجلة «العرفان» وكانت أمي تسمي كل كتاب «عرفاناً»، تقول لي وهي تشير إلى كتبي «خذ عرفاناتك». لا أذكر أثر العرفان في نفسي تلك الآونة، جلّ ما أذكره انكبابي الشديد على الدرس وكتبه.

**□ كيف كانت صلتك بإخوتك غير الأشقاء؟**

ـ لم أشعر يوماً بأن أخواتي غير شقيقات، كان ولا يزال يجمعنا حب قوي. كذلك كانت صلتي بأخي غير الشقيق. أخي الأكبر هاجر إلى بونس أيرس، الأمر الذي شقّ على أبي الذي أمضّته هجرته وإقامته في بلد غير إسلامي، كان يتأوه كلما ذكره وكان يقال إن ذلك الهمّ أورثه السلّ. عثرت على رسالة من أبي إلى أخي الأكبر يصوّر فيها مقدار ألمه وغضبه من رحيله. توفي والدي بالسلّ وأذكر أن كامل بك الأسعد، الذي كان يومذاك مشرداً في الجاعونة في فلسطين بعد دخول الفرنسيين إلى جبل عامل، أرسل له الأسعد طبيباً خاصاً حين علم بمرضه.

كانت أمّي وإخوتي غير الأشقاء ووالدتهم يعيشون في بيت واحد، لم يكن بين أمي وزوجة أبي الأخرى ما بين الضرائر، كما لم يكن بيننا ما بين الإخوة لأب. وأظن أن ذلك كان مردُّه، إلى حب أمي للناس وإيثارها.

□ **هل نزلت في طفولتك إلى الساحل؟**

ـ كان ذلك قبل وفاة الوالد، شاهدت صور والبحر لأول مرة، وكان ذلك حدثاً لا أنساه. وُصف لوالدي في مرضه البطيخ والبرتقال ولم يكونا من محاصيل القرية، لذا، اصطحبني أحد وجهاء القرية ويمّمنا إلى صور. كان ذلك عام 1919 وبهرني مرأى البحر. أذكر أننا أمضينا الليلة في بيت تقوم أعمدته على مياه البحر وبقي هدير الموج في أذني طيلة الليل ولم أنم لشعوري بهدير الموج وفرحي به.

□ **هل من ذكريات أخرى للطفولة؟**

ـ أذكر بركة حداثا، فيها تعلمت السباحة ومنها

كنت أسقي فرسي، كنت أسابق زملائي على فرسي. كانت بيننا وبين أبناء الشيخ الثاني في القرية الشيخ عبد اللطيف ناصر منافسة. كنا نتنافس في العلم ونتبادل الأحاجي العلمية. أذكر أنني كنت والمرحوم الشيخ محمد علي ناصر «مجايلي» نجتاز على فرسين أرضاً بوراً في داخلها بئر مهجورة ذات فوهة واسعة، وتسابقت مع الشيخ محمد علي ورآنا أهل البلدة فقالوا إنني عبرت بفرسي على الفوهة. وأظن أن ذلك أدخل في الوهم، فالقفز على الفوهة متعذر على الأرجح. لكن ذلك شاع عني وأصبحت بسببه معروفاً بفروسيتي.

□ **كيف تعلمت السباحة؟**

ـ يجمع الفلاحون أغمار السنابل في الحصاد ويربطونها «بالبابير» الذي يوضع في البركة ليطرى ويبتلّ ويصبح طيّعاً بذلك للربط. لذا تبقى البركة أيام الحصاد ملأى بالبابير، أنا استعنت بالبابير لأتعلم السباحة، صعدت عليه لأعوم على المياه. هكذا نشأت بيني وبين الشيخ محمد علي ناصر منافسة جديدة في

السباحة. كان الفلاحون يذكرون هذه المنافسة ويتلهّون بها. وكان يغلبني في إنشاد الشعر لأن صوته أطوع لذلك وأعذب. استمرت هذه المنافسة بيننا حتى في النجف، هناك كنا نتبادل المسائل التعجيزية ونُعدُّها بعضنا لبعض.

سقى الله تلك الأيام.

**□ هل كان لك في الفتوّة اهتمامات سياسية؟**

ـ لم تكن لدينا آنذاك اهتمامات سياسية بارزة، لكننا بوجه عام كنا نؤيد العصابات المقاومة للانتداب ونعتزّ برجالها، ونحلُّهم في مكان واسع من أحاديثنا. ولعل هذا في أصل نزعتنا المعادية للسيطرة الأجنبية. ومع أن الناس يومذاك كانوا يتذمرون من «تجاوزات» رجال العصابات، إلّا أن ذلك لم يبدِّل مواقفنا منهم.

**□ هل كانت هناك مواقف من رجال الدين؟**

ـ لم أكن خرجت من الوسط الديني بعد وكان رجال الدين بنظري أهل العلم لا الدين وحده.

□ **هل من مواقف من الزعماء والوجهاء؟**

ـ كنا نشعر بنقمة على الزعماء والوجهاء والبيكوات ونعاني من عنجهيتهم في قريتنا. كان آل بزّي يضمنون أعشار قرية حداثا ويعيّنون وكيلاً من قبلهم على محاصيل الضيعة يجبي أعشارها. هذا الوكيل كان حاكم الضيعة وزعيمها تقريباً. أذكر أن الناس كانوا يداهنونه ويسارعون إلى خدمته، وإن كنت نظراً لأني ابن عالم البلدة بعيداً عن سطوته. كان الوكيل يضرب أيام الحصاد خيمة على البيدر، بارزة ووحيدة، ويقيم فيها ليراقب المحاصيل. كان «يرشم» بقالب خشبي كوم الحصاد أي يطبع نقوشاً على أكوام الحنطة، لكيلا يجازف أصحابها باستلال بعضها فيفضحهم زوال النقوش. ذلك كان يثير نقمة الناس عليه، وإن كانوا يطوونها في صدورهم، ويعمدون بخلافها إلى التهرب منه وحمل الهدايا إليه، كما صاروا يفعلون بعد ذلك مع الدرك.

أذكر أيام «الرديف» حين كان الجندرمة الأتراك

يغشون الضيعة ليأتوا بالمطلوبين للخدمة العسكرية. يومها كان أهل الضيعة يتواضعون على مصطلح معيّن ينذر بوصول الجندرمة. ما إن يصلوا حتى يصيح الأطفال عباية عباية إلى أن يصل الصوت إلى المطلوبين فيهربون.

أذكر أن الجندرمة كانوا يغشون الضيعة أيضاً «لتحصيل ضريبة الأرض» «التحصيل دار» ويجبونها نقداً. كانوا ينزلون في البيوت يقيمون آكلين شاربين حتى يؤتى لهم بالضريبة. وإن عجز فلاح عن تأمينها حطموا أوانيه وأوعية المؤونة وخابية الزيت في بيته. كان قدوم الجندرمة كارثة تحل بالضيعة. فالنقود ذلك الحين عزيزة قليلة إلّا ما كان يرد من المهجر.

**□ في بنت جبيل لم تذكر موسى الزين شرارة؟**

ـ موسى الزين شرارة لم يكن مطروحاً بعد. كان يتاجر بين بنت جبيل وحوران مع عقيل شامي الذي أصبح عمه في ما بعد. ولم أتعرف عليه.

□ **لم تتعرف على الشيخ علي الزين في النبطية؟**

ـ لا.

□ **لم يؤثر لك في الفتوة شعر أو أدب؟**

ـ من وفاة الوالد حتى سفري كنت في هاجس السفر للنجف. كان حلمي أن أصير ذات يوم بعمامة وجبّة كوالدي. وأمضيت وقتي في التهيّؤ للسفر.

□ **ما هي الاستعدادات اللازمة للسفر يومذاك؟**

ـ كان ينبغي أن أؤمّن أجرة الطريق، أجرة الباصات التي تجتاز الصحراء. كما كان على الطالب أن يؤمّن ما يعيله لمدّة سنة بعد سفره.

□ **كيف أعددت لسفرك إلى النجف؟**

ـ كان عليّ أن أتهيأ مالياً، ولهذا طريقة تقليدية تقوم على جمع المال من المحسنين وكرام الناس. لم تطب لي هذه الطريقة فاستغنيت عنها إلى غيرها. عرضت الأمر على السيد عبد الحسين شرف الدين

الذي كان صديقاً أثيراً لوالدي. ولوالدي قصيدة في مديحه يوم هاجر. وسمع السيد وانتدب نفسه للأمر فسعى لجمع العائلة حول الموضوع. نزل أياماً في الزرارية ودعا القادرين من العائلة وكلمهم في المسألة ببيان جميل أُثر عنه؛ وما زال يحضهم على البذل حتى تأتّى له أن يجمع المبلغ اللازم. هكذا تمّ الإعداد للسفر، وكان له آثار هامة في نفسي ستجلوها الأيام. فقد حضرت جلسات السيد مع وجوه العائلة وكنت في صمتي أراقب ما يجري وألاحظ حركاتهم وتعابير وجوههم. ومن ذلك خرجت بأن غالبية هؤلاء يدفعون حياءً من السيد. كنت ألحظ التذمّر والتردّد ومحاولة النكوص في وجوههم. فرحتي بالسفر غطت على الألم الذي أحسست به في أعماقي، والذي كان مزيجاً من شعور بالذلّة، وشعور بقسر الناس على ما لا صلة له بهمومهم وشواغلهم. أحسست كأنني بتُّ من تلك اللحظة عالة عليهم. ذلك الشعور لبث طي نفسي ساكناً لا يتحرك، فقد استغرقتني فرحتي بوشك تحقيق حلم

والدي ووصيته الضمنية. لذا استخفى هذا الشعور في باطني ولم يعاود الظهور إلا بعد وصولي إلى النجف واحتكاكي بالحياة اليومية فيها.

**□ هل تتذكر أحداث الطريق إلى النجف؟**

ـ كانت تلك هي المرة الأولى التي أسافر فيها إلى بيروت، سبق لي أن زرت صيدا برفقة والدي. كنت مصحوباً في هذه الرحلة بابن السيد عبد الحسين، المرحوم، السيد محمد جواد شرف الدين مفتي صور، وبابن عمه المرحوم السيد علي شرف الدين، أي أنني كنت في هذه اللحظة لا أزال في رعاية السيد عبد الحسين شرف الدين وهي مناسبة للإقرار مجدداً بفضله. بهرتني بيروت ومنها يمَّمْنا إلى دمشق وفي الطريق من بيروت إلى دمشق أذكر أماكن منها طلعة الجمهور حيث أفطرنا لبنة (ودعنا اللبنة) في مقهى كان هناك. أذكر أننا في دمشق نزلنا في فندق بشارع السينجقدار الذي يتصل بساحة المرجة. كنت فرحاً جداً بالنزول في هذا الفندق وكأنه فاتحة الدخول

إلى العالم الجديد الذي ينتظرني. ومن دمشق توجهنا في باص سياحي لشركة إنكليزية. لم تكن الطريق معبّدة، وكنا نهتدي في الطريق بآثار من سبقونا. بين الشام وبغداد لم يبقَ في ذاكرتي ما يستحق الذكر.

لدى وصولنا إلى بغداد نزلنا في الكاظمية أو الكاظميين. نزلنا في دار الإمام حجة الإسلام السيد حسن الصدر لقرابته بآل شرف الدين. أمضيت أسبوعاً في الكاظميين، وانتقلت إلى النجف الأشرف بصحبة الرفيقين إياهما ونزلنا جميعاً في منزل السيد محمد علي شرف الدين ابن الإمام شرف الدين وكان قد سبقنا إلى النجف مع أخويه السيد صدر الدين والسيد محمد رضا.

□ **كيف بدأت تجربتك في النجف؟**

ـ كانت فرحتي هائلة بوصولي إلى النجف وانبهاري كان عظيماً بمشهد حرم الإمام عليّ. لكن كان لا بد في الغد من الانخراط في الواقع الجديد الذي يفرض عليّ أن أختار أول أستاذ لي في النجف.

كان عليّ بحسب برنامج الدراسة أن أبدأ بدراسة المنطق، فقد أتممت دراسة النحو في صورته التخصصية في جبل عامل. ورأيتني مع ذلك أتعامل مع هذا الواقع من دون كلفة. فقد يمّمت إلى المسجد الهندي وهو أكبر المساجد التي تنتظم فيها حلقات الدرس قريباً من حرم الإمام عليّ. دخلت المسجد وبدأت أطوف بين الحلقات وأتريّث هنيهة عند كل حلقة أسمع وأرى. وتوقفت خلال الطواف عند حلقة لدراسة المنطق يتصدرها أستاذ هو شيخ هادئ وديع مرح يتكلم بهدوء وأناة، ويتلجلج أحياناً في النطق، ويكاد التلجلج يعيقه عن بيان أفكاره. على الرغم من ذلك، وربما بسببه، أحببت هذا الأستاذ ورغبت في الدرس عليه. كان هذا الأستاذ هو الشيخ علي الزين. ولم تكن لي به معرفة من قبل. لأنه سبقني إلى النجف، نعم كنت التقيته من قبل حين جاء للسلام عليّ في منزل السيد محمد علي شرف الدين، وكان اللقاء عابراً. ببساطة بات الشيخ عليّ أستاذي وانتقلت

من بيت السيد محمد علي إلى غرفة استأجرتها في بيت، ريثما أجد غرفة في إحدى المدارس الكثيرة في النجف. تسمية مدارس في النجف لا تعني سوى منازل إيواء الطلبة الغرباء. أما الدراسة نفسها فتتم في المساجد أو في حرم الإمام علي. في الإيوان وهو الفسحة التي تحيط بصحن الدار.

□ **هل أدى ذلك إلى صلة خاصة بالشيخ عليّ الزين؟**

ـ هناك حادثة أتردد في ذكرها. فقد آلت الدراسة على الشيخ علي الزين إلى صداقة بيننا تعدته إلى أخيه. ولم أكن أدري حينها أن بين شرف الدين وآل الزين خصومة، وهكذا وجدتني أنا الذي قدمت إلى النجف في رعاية آل شرف الدين محرجاً متورطاً من حيث لا أحتسب في هذه الخصومة. تلك كانت صدمة أولى لي. صداقتي للشيخ عليّ الزين بدأت من ذلك الوقت وترسخت بمرور الزمن وغذّاها تقارب في الذائقة الأدبية وسلوك ومواقف من الأحداث كانت تتمخض

في المنطقة وجبل عامل. في الوقت نفسه جددت صلتي بمحمد شرارة الذي عدت معه ثانية زميلاً في الدراسة في الكتاب ذاته وعلى الأستاذ نفسه. لكن دراستنا على يد الشيخ علي الزين لم تدم طويلاً إذ اضطر للعودة إلى لبنان بداعي مرضه.

□ **كيف سارت بعد ذلك تجربتك النجفية؟**

ـ انتقلت بعد قليل إلى مدرسة (منزل للطلبة حسب المصطلح النجفي) تدعى مدرسة بادكوبه (اسم تركي) وكان فيها فريق من طلبة جبل عامل بينهم محمد شرارة والسيد محمد باقر إبراهيم. وبتنا نحن الثلاثة متلازمين في الدرس والحياة اليومية وانتقلنا معاً إلى أستاذ للمنطق تركي الأصل هو الشيخ محمد الكنجي، ولهذا الأستاذ أثره في حياتي فإلى كونه متمكناً من المنطق، قديراً في تدريسه كان رجل دين مستنيراً بعيداً عن الجمود والتزمّت. وقد يكون لهذا الأستاذ يد في التغيير الذي قلب في ما بعد مجرى حياتي.

**□ ما هي ملامح هذا التغيير؟**

ـ مرت سنة على وصولي إلى النجف وأنا غارق في فرحة اللقاء بهذا العالم الجديد ولكن ما إن صحوت من حلمي حتى تتالت الصدمات. وقد تكون الأولى التورط في خصومة لم أتهيأ لها. أما الثانية فكانت حين دخلت إلى مزاد الكتب الأسبوعي (سوق تباع فيها الكتب بالمزاد). ولا أدري ما الذي دعاني لشراء ديوان شعر للسيد إبراهيم الطبطبائي. كان ذلك أول ديوان شعر أقرأه وأتعرف فيه على الشعر. لم يكن الكتاب بذاته ذا خطر، لكن اقتنائي له ووجوده عندي ألقى عليّ «شبهة» قراءة الشعر. فقد زارني بعض رفقتي من الطلبة ورأوا الكتاب وارتفعت أصواتهم باللوم والاعتراض والنهي والإيعاز بالكفّ عن قراءة الشعر لئلا يلهي عن الدين والدرس، ولم يكن التنبيه في محله فقد كنت مع زميليَّ الاثنين من المجلّين في الدرس والمذاكرة. لم يثنني اللوم وآلت بي قراءة الكتاب إلى طلب الشعر في غيره من الدواوين وهكذا

توصلت إلى ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي الذي راق لي ما فيه. هكذا أمعنت في قراءة الشعر وزاد الانتقاد والاعتراض عليّ.

□ **إذن بدأت هكذا صلتك بالأدب؟**

ـ زادت صلتي بالأدب والشعر حين انتقلنا من دراسة المنطق إلى علوم البلاغة (بديع وبيان ومعاني)، واتفق أن أستاذنا في البلاغة كان شاعراً كبيراً ومرموقاً في النجف هو الشيخ مهدي الحجّار وكنا ندرس عليه كتاباً مطبوعاً على الحجر هو «المطوَّل» وله مختصر هو مختصر المطوَّل. كان الشيخ إلى كونه شاعراً متذوقاً لأغراض الأدب كافةً، فإنّ تدريسه كان بالغ الإمتاع، إذ كان يدرس بذوق ومعرفة. من هنا ازددت تورطاً في الأدب وتملكتني شهوته حتى لا مردّ عنه مهما بلغت الاعتراضات والانتقادات. بذلك انجررت إلى اقتناء كتب أدب قديمة وحديثة. وانتظمت قراءاتي وباتت متصلة. وبدأ صدامي بالواقع النجفي.

**□ هل اقتصرت قراءاتك «الجريئة» على الأدب وحده؟**

ـ كنت أتابع كل ما تنتجه المطبعة العربية الحديثة من كتب في كل الأغراض، سواء في ذلك المطبعة العراقية أو السورية أو اللبنانية أو المصرية. إذ كان النجف سوقاً للنتاج العربي كله. كانت تصل أيضاً المجلات التي تصدر في شتى البلدان العربية كالهلال والمقتطف والرسالة والثقافة. واتسع اطّلاعي على هذه الكتب والصحف دون أن ينال من مواظبتي على الدرس أو تفوّقي فيه. ولم يكن مبلغ علم الطالب وجدارته يخفيان في الوسط الدراسي النجفي، فالنظام التعليمي يفسح في النقاش والأخذ والرد بحيث يظهر بجلاء ما حصّله كل طالب وما استوعبه. والزيارات العادية نفسها تتحول إلى جلسات مذاكرة ونقاش في شتى الأغراض لا يخفى فيها مقدار تضلع كل واحد ومعرفته. كان الاحتجاج بالدرس عبارة دارجة على الألسنة تستند إلى قول مغيَّب عن ظهر قلب مفاده أنه

ينبغي أن تعطي العلم كلك لكي يعطيك بعضه فكيف إذا أعطيته بعضك.

□ **كيف واجهت النقد المتزايد لك؟**

ـ تورطت في قراءة الأدب وغيره. وجرَّ عليَّ هذا التورط خصومة الطلبة والزملاء، حتى كدت أجد نفسي منبوذاً منهم، فقد كنت لا أداري في إظهار ميلي إلى الأدب وتعلقي به. ضاق عليَّ الحصار ووجدتني في دوامة صراع داخلي مداره خيار صعب بين الدرس والأدب لم أخرج منه بنتيجة. مما عرَّضني لقلق نفسي ولجملة عوارض عصبية منها ضيق النفس.

في تلك الآونة زار الشيخ أحمد مروّة (الذي سبق ذكره) النجف وعاين ما أنا فيه وصحبني إلى بغداد للترويح عن النفس. وفي بغداد خطر لي أن أعود معه إلى لبنان وهكذا فعلت.

□ **هل خطر لك ترك النجف؟**

ـ خطرت هذه الفكرة بعد عودتي إلى لبنان، لكنها

بدت مستحيلة لجملة أسباب منها تأصُّل التعليم الديني في نفسي وعجزي عن التحول عنه للتعليم الحديث بسبب عوزي المادي وصعوبة إيجاد عمل، لذا عدت إلى النجف.

□ **هل تعرفت إلى وجوه أدب وثقافة في هذه العودة إلى جبل عامل؟**

ـ تعرفت إلى موسى الزين شرارة وحسن فياض شرارة وعلي بزّي وعبد الحسين عبدالله والسيد حسن الأمين وفتى الجبل السيد عبد الرؤوف الأمين لكنها كانت معرفة أولية.

□ **هل تُحدثنا عن نظام التعليم الديني في النجف آنذاك؟**

ـ التعليم الديني في النجف ثلاثة أقسام: المقدمات فالسطوح فالخارج وهو قمة الدراسة. المقدمات تضم علم النحو والمنطق والبلاغة ويدرَّس النحو في قطر الندى وألفية ابن مالك والمغني لابن

هشام ويدرَّس المنطق في حاشية علا عبدالله وكتاب الشمسية، أما البلاغة فتدرَّس في المطول وله مختصر، أما القسم الثاني السطوح فهو دراسة أصول الفقه، وتدرَّس أصول الفقه في الرسائل للشيخ الأنصاري وكفاية الأصول للإمام الأخوند وهناك حواشٍ وتقريرات على هذين الكتابين يطالعها الطالب بمفرده كما يدرس الفقه في اللمعة للشهيد الثاني العاملي وكتاب المكاسب.

أما القسم الثالث الخارج فهو دراسة جامعية يستغنى فيها عن الكتب المقررة ويحضرها مجموع الطلاب الذين أنهَوا المقدمات والسطوح ويرقى فيها المجتهد الكبير المرجع (وقد يكون هناك أكثر من واحد) المنبر ويطرح قضية من قضايا الفقه ويعالجها معالجات استنباطية اجتهادية. يذكر الدليل والشواهد والمرجِّحات التي يراها في استنباط الحكم ويناقشه الطلبة مناقشة جادّة وحرة، وسمِّي القسم الثالث بالخارج لأن الدراسة فيه تدور خارج الكتب.

أما كيفية التدريس فلا تقوم على حصر التدريس في أساتذة معيّنين، أو حصر الطلاب في صفوف، كل ما في الأمر أن طالباً أو أكثر يتقدمون من أستاذ يرون فيه القدرة يطلبون تدريسه لهم. بعد ذلك تتشكل حلقة حول الأستاذ ولا أهمية للعدد، فإذا نجح الأستاذ زاد عدد طلاب درسه، وإن فشل انفضّوا عنه وتركوه بدون إخطار أو إعلام. الكتاب الواحد إذن يدرَّس في حلقات وفي أي مكان يتفق عليه الطالب والأستاذ، أما طريقة التدريس فتقوم على أن يطالع الطالب فصول الكتاب مطالعة متأنية جادّة متعمقة قدْر الإمكان ويحضر الدرس بهذه الصفة. ولا حاجة للأستاذ إلا لتنظيم الأفكار وتوسيع المعارف. بحكم هذا التحضير يتحول الدرس إلى مناقشة حرة بين التلميذ والأستاذ قد تعنف وقد تحتد وتعلو وتيرتها والأستاذ في العادة لا يعنف ولا يغضب فإن اعتراه شيء من ذلك دلَّ على فشله.

بهذه الطريقة يتعلم الطالب الاعتماد على النفس

ويكتسب تدريجياً شخصية علمية واثقة ويتعود القراءة اعتماداً على فكره وذهنه قبل كل شيء.

**□ هل عانيت فشل أستاذ؟**

ـ الأستاذ للتنظيم والإضافة وكثيراً ما ينكشف ضعف الأستاذ حين يعجزه الجواب عن الأسئلة والمناقشات. درسنا على أستاذ تركناه لفشله بعد درسين وهناك أساتذة بحركاتهم ومحطات كلامهم تركناهم لفشلهم.

**□ التلميذ قد يزاوج بين التلمذة والأستذة**

ـ كل طالب أستاذ وتلميذ في آن معاً. يدرس الكتاب إلى أن ينتهي منه ويرتقي إلى غيره. هكذا يزاوج بين الأستذة والتلمذة وينضج فكره بينهما.

**□ ما صلة علاقات التعليم بالتراتب الديني؟**

ـ نظام التعليم هو أساس التراتب الديني، فلكل امرئ يدرُس (بضم الراء) ويدرِّس (بكسر الراء بعد

تشديد) أساتذة وتلامذة عرفوه وخبروه، والمذاكرة اليومية تكشف إمكانية كل واحد ومبلغ علمه. وحين ينتقل الطالب الأستاذ بين حلقات الدرس واحدة تلو أخرى حتى يصل إلى الفقه يكون قد امتلك عبر ذلك رصيداً وسمعة في الوسط العلمي كفيلين برفعه إن استحق ذلك أو إبقائه في مكانه إن كان دون ما يرتجى منه، المرء يرتفع بحكم تفوُّقه وكلما زاد الالتفاف حوله والإقرار بفضله والاعتراف به ارتقى في الرتبة والدرجة إلى أن يصل إلى المنبر أي إلى الخارج ليحسب عندئذ بين المجتهدين الكبار.

□ **أستاذ الخارج وحده يرقى المنبر**

ـ أستاذ الحلقة في مرحلتي المقدمات والسطوح يتصدر الحلقة، أما أستاذ الخارج فيدرِّس من على المنبر والطلبة تحت منبره.

□ **كيف يترقى أستاذ المنبر؟**

ـ يبدأ أستاذ المنبر بمريدين قليلين يتكاثرون كلما

زادت شهرته واتسع صيته. وليصل الأستاذ إلى هذا المستوى لا بد له على الأقل من تزجيه قضية عشرين سنة في الدرس والتدريس، وإن لم يكن هناك حصر أو تحديد لعدد السنوات أو الكتب.

□ **هل تدخل عوامل غير التدريس؟**

ـ هناك المعونة التي يقدمها مراجع من «الحقوق» التي تصل إليهم وهي تنقص أو تزيد من مرجع إلى آخر.

□ **هل تدخل في التقدير عوامل شخصية؟**

ـ تدخل في التقدير سمعته الأخلاقية وورعه.

□ **هل يأخذ الانقسام بين أكثر من مرجع طابعاً متحزباً؟**

ـ تصل التصفية إلى عدد قليل، هكذا يصبح الانقسام ذا طابع متحزب وقد يغدو سياسياً. في تلك الآونة كان الانقسام بين السيد أبي الحسن والميرزا

حسين النائيني والأول أكثر استنارة وانفتاحاً والثاني أكثر تزمتاً.

□ **متى يحتدم الانقسام؟**

ـ يزداد احتداماً كلما ارتفعت السلسلة.

□ **هل تدخل فيه عوامل عرقية؟**

ـ تدخل لكن الثقل تلك الآونة كان للجو الإيراني والمجتهدون العرب كانوا قلة.

□ **هل وجد عامليون في الاجتهاد أو على أبوابه؟**

ـ أخرج العامليون تاريخياً أكثر من مجتهد، لكنهم الآن لا يصلون إلى الاجتهاد، كونهم يتعجلون العودة إلى بلادهم لفقرهم وحاجتهم. كان الشيخ عبد الكريم مغنيّة مؤهلاً للمرجعية لكنه لإلحاح الأهل وإلحاح الحاجة عاد. على المرجع أن يبقى في التدريس وعلى الأغلب في النجف لأن النجف مركز زعامة العالم الشيعي. أسس علماء لدى عودتهم مدارس دينية

كالشيخ موسى شرارة لكن زعامتهم لم تشمل العالم الشيعي كذلك تصدّى السيد محسن الأمين للمرجعية وكان له مقلِّدون كثيرون، والميزة الهامة، للإمام الأمين استقلاليته الاجتهادية وشخصيته المتنوعة الجوانب.

□ **بعد عودتك إلى النجف. هل عدت إلى الصراع ذاته؟**

ـ استأنفت الدراسة لأخوض هذه المرة صراعاً آخر، هو صراع أفكار. فقد بدأت تتكون عندي مبادئ جديدة تخالف المجرى الفكري السائد هناك. لم يعد الخلاف وقفاً على مسائل التدريس، ولكن تعداها إلى قضايا الطبيعة والكون. باتت أسئلتي باعثة على التشكيك في ديني. ولم يعدم المشككون سنداً لذلك في أفكاري غير المألوفة وسلوكي.

□ **أية أفكار وأي سلوك؟**

ـ جملة أفكار من بينها الاتجاه السياسي الوطني،

ورفض الكهنوت في الإسلام باعتباره طارئاً عليه فلا حاجة إلى طبقة يتلقى منها الناس دينهم ويعتبر أفرادها أنفسهم أوصياء قيِّمين على أفكار الناس وسلوكهم. والتشيُّع لا قِبَل له بهذا. يضاف إلى هذه الأفكار مطالعة شبلي الشميّل وإسماعيل مظهر ذوي الاتجاه المادّي ومجاهرتي بهذه القراءة وطرحي انطلاقاً منها أسئلة تتناول مجمل الفكر الديني. أما اختلاف سلوكي فكان ظاهراً في احتذائي مداساً أبيض في الصيف والعادة أن يكون أصفر، وفي عنايتي بقماش القنباز ونظافته وخياطته. وذلك كان موضع استهجان.

□ **هل كان لهذه الأفكار صدىً وجو بين الطلبة؟**

ـ قامت في النجف جماعة ربط بينها الاشتغال بالأدب والشعر والتأثر بالأفكار الجديدة (الفكر الوطني المعادي للاستعمار والأنظمة التابعة). هذه الجماعة كانت في الاتجاه الوطني في العراق، اتّجاه الزعيم جعفر أبو التمن، وضمت عامليين ونجفيين، ومن العامليين الشيخ علي الزين الذي قفل إلى لبنان

والشيخ محسن شرارة و«الشيخ» محمد شرارة والسيد هاشم الأمين بالإضافة لي. أما النجفيون فمنهم عبد الرزاق محبي الدين والشاعر صالح جعفري والشاعر محمد صالح بحر العلوم. هؤلاء كانوا في لقاء ومذاكرة دائمين. كما كانوا يشاركون في احتفالات ومناسبات تقليدية بإلقاء قصائد وكلمات ويدعون إلى التجديد في شتى الأغراض ومنها الأدب نفسه. كانوا جميعاً ينشرون نتاجهم في العرفان. وقد أطلقنا على الجماعة اسم «الشبيبة العاملية النجفية».

**□ ماذا جدَّ عليك إبّان هذه المواجهة؟**

ـ ذكرت إنني عدت إلى النجف واستأنفت دراستي، كنت صرت في الحلقة الأخيرة من الدرس (أصول الفقه) وكان أستاذي في الفقه الشيخ عبد الكريم مغنيّة. وكنا ثلاثتنا (أنا ومحمد شرارة ومحمد باقر إبراهيم) ندرس عليه. وعلى الرغم من انصرافي للدرس بقيت على صراعي الداخلي وترددي بين متابعة التعليم الديني أو النكوص.

وكان ذلك يتفاعل في نفسي ويزداد تأزماً؛ كان الشيخ عبد الكريم على دراية بحالي يتفهم بواعثه وفحواه. وصادف ذلك الحين أن أقام الشيخ حبيب المهاجر في «العمارة» التي كان البروتستانت قد قاموا فيها بحملة تبشيرية أرفقوها بإنشاء مكتبة ومستشفى ومدرسة. وكان لا بد للشيخ من التصدي لهذه الحملة فقام بإنشاء مكتبة ومدرسة ومجلة وطلب في رسالة إلى الشيخ عبد الكريم أن ينتدب له طالباً مؤهلاً لإدارة المكتبة أو المجلة. فانتدبني الشيخ لهذه الغاية لكوني على حدّ تصوره «عصرياً قادراً على التفاهم مع الطلبة والشبان».

كنت أغالب صراعي الداخلي، فوجدت في هذه مخرجاً وقبلتها. يمَّمْتُ إلى العمارة فتوليت المكتبة إذ سبقني إلى تولّي المجلة شابٌ من أهل العمارة. وكلفني الشيخ حبيب الاتصال بالطلبة الثانويين والشبان المثقفين وأطلق يدي في التصرف معهم. كتبت نداءً إلى الطلبة والمثقفين أدعوهم إلى زيارة المكتبة. سواء

للاتصال بي والتباحث معاً في شؤون الثقافة والفكر والأدب أو لمطالعة الكتب مشيراً إلى أنني مثلهم أبحث وأسأل وإن كنت معمَّماً. استجابوا للنداء وأقبلوا أفواجاً إلى المكتبة وبدأت مكتبة البروتستانت تقفر من روّادها.

تابعت دراسة الفقه على يد الشيخ حبيب، وبادرت إلى إلقاء محاضرات أسبوعية على روّاد المكتبة، كنت أكتبها وأسلّم النص إلى الشيخ حبيب ليأذن بإلقائها فكان يعيدها إليّ مذيلة بعبارة «أحسنت»، إشعاراً بموافقته. أقمت في غرفة في المسجد، وزيادة مني في التقرّب من الشبان كنت أتمشى معهم، الأمر الذي لم يكن مألوفاً تلك الأيام.

وما إن انقضى شهر على التجربة حتى استدعاني الشيخ حبيب إليه، جئت لرؤيته في المسجد فرأيته يتصدر حلقة من المؤمنين وما إن صرت في مواجهته حتى قال لي «قررت الهيئة الإدارية في المكتبة فصلك من العمل فيها لأنك تنشر الزندقة والإلحاد بين

الطلاب». علم الشبان بالحادثة فالتفوا حولي واحتضنوني ونقلوني من غرفتي في المسجد إلى أخرى في الفندق. وقرروا أن يوكلوا إليّ أمر إنشاء مؤسسة أخرى في مدينتهم والإشراف عليها. كما قرروا إقامة حفل تكريمي لي. رفضت ما عرضوه عليّ لأنني خشيت أن تثير إقامتي في العمارة على هذا الوجه شقاقاً بيني وبين الشيخ حبيب، أو شقاقاً بين أهل العمارة أنفسهم. أزمعت الانتقال من العمارة إلى بغداد. فأقام لي شبان العمارة حفلة وداعية تكريمية قدّموا لي خلالها هدية هي قلم ذهبي.

ليلة الحفلة ذهبت إلى شاطئ دجلة وأنا أشعر بهمّ ثقيل وبتأزّم نفسي، ولربما راودني في تلك اللحظة خاطر أن ألقي بنفسي في النهر.

□ **ماذا فعلت بعد ترك العمارة؟**

ـ كان عليّ أن أمر ببغداد في طريقي إلى النجف، قررت أن أمضي أياماً في بغداد لدى صديق أديب يعمل حلاقاً وينتسب إلى الحزب الوطني. وما إن مرَّ

عليَّ يومان حتى تسلمت رسالة مفاجئة من قريب لي من المهاجرين إلى الأرجنتين ليست لي به معرفة تتضمن شيكاً بعشرين جنيهاً يقول في رسالته إنها لي لأستعين بها على متابعة دراستي.

كنت قررت إثر وصولي إلى بغداد أن أقطع دراستي. فقد زادتني حادثة العمارة ضيقاً على ضيق. لذا حزمت أمري وتدبرت لي عملاً كمدرس في مدرسة ابتدائية خاصة في بغداد على أن أعيش داخل المدرسة. لذلك أعدت الشيك إلى قريبي المهاجر في رسالة ذكرت فيها أنني لا أستحق الشيك لأنني أوقفت دراستي. أمضيت نحو شهر في المدرسة تسلمت بعده رسالة من قريبي يردّ لي الشيك فيها ويذكر أن هذه المساعدة لحسين مروّة وله أن ينفقها في الوجه الذي يريده.

هنا خطر لي أن أنتسب إلى مدرسة في الشام تؤهل الطالب بعد عام دراسي لدخول الجامعة. فالمبلغ يكفي لنفقات السنة.

**□ هل انتسبت إلى هذه المدرسة؟**

ـ وصلت إلى الشام. وعلم بعض أصدقائي في لبنان بوصولي. فأرسلوا لي رسالة زينوا لي فيها أن آتي إلى بيروت لأعلّم في المدرسة العاملية، للأسف راق لي العرض وانتقلت إلى بيروت لأمضي سنة في المدرسة العاملية التي كان يديرها ذلك الحين حسين صباح ومن أساتذتها الأستاذ سرحان سرحان والمرحوم الشيخ عارف الحر. انقضت السنة في خلاف وصدام دائمين مع المدير والمؤسس. لذا سارعت لدى انقضائها إلى الشام لأبحث عن عمل يكفل لي الانتساب إلى المدرسة المذكورة. وبالفعل تهيأ لي أن أعمل في جريدة الشعب لصاحبها توفيق جانا وكان يرئس تحريرها نصوح بابيل الذي صار في ما بعد نقيباً للصحافة السورية. وما إن تسلمت العمل ولم يكن انقضى عليَّ سوى أسبوع فيها حتى طلبت إذناً بالسفر إلى جبل عامل للزواج، وبالفعل سافرت وعدت بالعروس إلى دمشق لأجد العمل قد طار وحلّ فيه غيري.

**□ ماذا فعلت عندئذ؟**

ـ كتمت الأمر عن عروسي لئلا أربكها وداومت على الخروج صباحاً متظاهراً بأنني ذاهب إلى عملي، بينما أنا في حقيقة الأمر أبحث عن عمل. دام هذا الحال أشهراً وهي غير دارية بما يحصل ولم أبلغها بذلك إلا بعد انقضاء سنين وسنين.

كنت ألتقي في دمشق الشاعر أحمد الصافي النجفي وسليم خياطة الكاتب التقدمي المعروف، وكثيراً من السوريين واللبنانيين الذين يتحلقون حول الصافي النجفي في مقهى الكمال. كما تعرفت تلك الآونة إلى معروف الأرناؤوط مؤلف رواية «صقر قريش» ومعروف الرصافي.

**□ كيف كنت تستعين على حياتك؟**

ـ كنت أجد بين حين وآخر عملاً جزئياً بأجر زهيد كتصحيح كتاب. في تلك الآونة ولد ابني الأول ولك أن تتصور الضائقة المادية التي كنت فيها، لكنني

أود في هذا السياق أن أذكر مأثرة لعبد المطّلب الأمين، فقد كان عبد المطّلب آنذاك طالباً في مدرسة التجهيز في دمشق وكان قد تسلم لتوه قسط المدرسة من والده ليدفعه وإلّا عرّض نفسه للفصل. وأمام الحال التي كنت عليها، آثر عبد المطّلب أن يعطيني القسط لتغطية نفقات الولادة مجازفاً بمستقبله الدراسي. وأذكر أنني كنت في تلك الفترة أقيم في منزل والده السيد محسن الأمين لخلوّه من أهله الذين كانوا آنذاك في شقرا في جبل عامل.

□ **هل دامت الحال هكذا؟**

ـ أطبقت عليّ الأزمة بوجوهها المادية والفكرية والنفسية، فآثرت العودة إلى بيروت. وهناك انعقدت لي صلات بشبان من جبل عامل بين طلاب في الجامعة الأميركية وموظفين، أذكر منهم الدكتور علي بدر الدين، الذي كان يدرِّس الطب في الجامعة الأميركية. وصنوه في ذلك الدكتور فؤاد عسيران، ونزيه الأسعد وكنت معهم أتابع القضايا الوطنية، وشؤون جبل

عامل. اتصلنا برياض الصلح وقادتني هذه الصلة إلى العمل في جريدة «العهد الجديد» لصاحبها خير الدين الأحدب، وكانت العهد الجديد حينذاك جريدة في اتجاه وطني يعكس سياسة رياض الصلح، لكنها كانت في حالة إفلاس. كنت أحررها بكاملها وأتولى شؤونها كافة وصاحبها يلزم داره ولا يشعر بها، هكذا وقعت على مفلس كنت أصيب بين الأسبوع والأسبوعين «برغوتاً» وأقبض ما يتفق له أن يعطيني إياه بدون تحديد للراتب لكنني كنت على ذلك أزاول عملي بمتعة تعود إلى حبي له كما تعود إلى اتجاه الجريدة الوطني. غير أن الحاجة غلبتني آخر الأمر فخطر لي أن أمتهن حرفة يدوية، هكذا استجبت لاقتراح صديقي السيد زين هاشم صاحب مكتبة هاشم وبدأت أتعلم تجليد الكتب على يد مجلّد أرمني.

**□ هل أهملت العلم؟**

ـ بقي العلم حاجة أساسية في نفسي تلحّ عليّ وتبعث على قلقي.

**□ هل ترددت على جبل عامل آنذاك؟**

ـ ترددت على جبل عامل وكانت لي لقاءات في شقرا والصوانة وحاريص وحداثا وبنت جبيل مع أدبائه المعروفين أمثال موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبدالله والشيخ علي الزين. في واحدة من زياراتي لجبل عامل بلغتني كلمات عن السيد حسن محمود الأمين يتحسّر فيها على تركي النجف ويقول إنني هدرت إمكانيات تؤهلني لبلوغ مرتبة عالية من العلم لو تابعت، وإنه على استعداد لأن يرسلني برعايته لو أزمعت العودة.

**□ عل عدت؟**

ـ أثَّر هذا الكلام فيَّ ولامس رغبتي في التعلُّم فنهضت إليه من فوري وفاتحته برغبتي في العودة. فسرّه قراري. لكن الذي تولى رعايتي مادياً كان الشيخ سلمان مروّة الذي كان مقتدراً ويملك محلاً في صيدا، منحني الشيخ سلمان ليرتين ذهباً سافرت بهما وانقطع عني بعد ذلك كل مورد.

ذهبت هذه المرة بإقبال وشغف وصفاء نفسي فقد قررت أن أتابع العلم إلى نهايته وإن أكن أضمرت قراراً حاسماً في أن لا أنخرط بعد إتمامي الدراسة في السلك الديني.

□ **من تذكر في هذه الفترة من الرفقة؟**

ـ أمضيت أربع سنوات في درس وتحصيل زاخرين وبجِدٍّ ونشاط يجاوزان الحدّ؛ أذكر في هذه الفترة السيد هاشم معروف الحسيني الذي كان من المجدّين، المتفوقين في دراستهم. ورغم أنني كنت من رعيل سابق عليه في الدراسة رغبت إليه في أن يكون رفيقي في الدرس أو المذاكرة. والمذاكرة هي أن يحضِّر الواحد موضوعاً يناقشه مع زميله. وهكذا استطعت أن أدرس بالمذاكرة كتب أصول الفقه وبعض كتب الفقه فوق ما كنت أحصّله بحضوري حلقات الدرس، وكان رفيقي في كل ذلك السيد هاشم ومعاً قرأنا كتاب كفاية الأصول بكامله وهو من أصعب الكتب في نصه ومادته وكتاب «بلغة الفقيه». أفادتني

هذه الرفقة كثيراً لما كان يتمتع به السيد هاشم من فكر وثّاب ومن صفاء نفسي وتواضع ووفاء.

**□ كيف بدأت الكتابة؟**

ـ ما كان يخطر لي قبل أن أبدأ الكتابة أن أغدو كاتباً؛ ثَمّة حادثة انطلقت منها إلى الكتابة أحب أن أذكرها. خطر لي عصر يوم أن أخرج في نزهة بين مقابر دار السلام، جلست وحدي أمام أحد القبور ورأيتني فجأة آخذ قلماً وورقة كانا معي، وباشرت فوراً كتابة بعض الخواطر. دون سابق تهيّؤ أو استعداد، رجعت إلى غرفتي في المدرسة (منزل الطلبة) وكان اليوم يوم خميس وتاليه الجمعة وهو يوم عطلة. ويوم العطلة مناسبة يتزاور فيها الطلبة؛ واتفق ذلك اليوم أن زارني بعض الطلبة العامليين وبدأت أعدّ لهم الشاي وحين عدت إلى غرفتي بادرني أحدهم ما هذا الشيء الجميل الذي أقرأه لك، ولم أفطن لما يقصده بادئ بدء فاستفهمته وعلمت أنه يقصد الورقة التي دوّنت فيها خواطري وكنت حفظتها تحت المخدة.

وتابع الزميل ثناءه على القطعة وحثني على نشرها تكراراً حتى زيّن لي الأمر فأرسلتها إلى جريدة «النجف» وهي أسبوعية تصدر في النجف، وغاب عني الأمر، إلى أن ذهبت برفقة زميلي محمد شرارة ومحمد باقر إبراهيم لنتلقى الدرس اليومي. وكان من عادته أن يستقبلنا باشاً ويمضي الدقائق الأولى من الجلسة في حديث فكه، لكنه هذه المرة استقبلنا بوجه بارد ولم يترك لنا وقتاً للمسامرة وبدا مغضباً، وأخذ يعظنا متجهماً عابساً. وحرنا في السبب بادئ الأمر إلى أن تبيناه بعد ذلك. إذ رأينا القطعة منشورة في الجريدة، وتناهى لنا أن الشخص الذي حثني على نشر القطعة عمد بسوء نية إلى شراء أعداد كثيرة وتوزيعها على أساتذتي على سبيل الوشاية. كان سيّئ الطوية لكن كان له فضل أن أطلقني للكتابة وأنني صرت كاتباً. نشرت القطعة بعنوان «أنا ونجمة الليل» وبتوقيع «ساهر» أما القطعة الثانية التي كتبتها فكانت بعنوان «وقفة على ضفاف الليطاني» وكانت بتوقيع ناظر وقد نشرتها في العرفان وكتب عنها السيد حسين الأمين مقالاً.

**□ هل نتكلم على صلتك الأولى بالمرأة؟**

ـ لم أكن، بخجلي، أفصح عن مشاعري تجاه النساء في فترة الفتوة والمراهقة، لكنني بدأت بين الثانية عشرة والرابعة عشرة أنزع إلى محادثة النساء ولقائهن ولفت نظرهن. ذلك كان يدور بيني وبين نفسي لم يتعدّها إلى التصريح والمجاهرة. في الثامنة عشرة أضمرت حباً لفتاة في سنّي. لكن ذلك بقي أيضاً طي نفسي ولم يخرج إلى العلن، ولم يتعدَّ من جهتي الاستلطاف ومحاولة جذب انتباهها بركوب الخيل وإلقاء الشعر بصوت عال، وحين ذهبت إلى العراق لم يكن بقي في نفسي أثر لهذه القصة فقد استغرقني تحضير نفسي للسفر وألهاني عن كل شيء.

طفولتي المقموعة روّضتني على كتمان مشاعري وكبتها. بعد سفري إلى العراق انشغلت كلياً عن المرأة إلى أن عدت سنة 1925 إلى لبنان والتقيت في دارنا بفاطمة بزّي، وهي ابنة بنت عمي. كانت بحكم قرابتها تخالطنا وتغشى منزلنا.

□ **كان اللقاء ممكناً إذن؟**

ـ كان اللقاء سهلاً سواء في بيتنا أو بيت والدها المرحوم الحاج محمد فاعور بزّي من وجهاء بنت جبيل وتجارها. كانت الصلة ميسورة مقبولة. لم تتعرض لرفض أو اعتراض من الأهل. بل إن بعضاً من أهلها وأهلي كانوا يَحْبُونَ هذه الصلة الوليدة بالرعاية ويسهّلون لها أن تصل إلى غايتها. هكذا غدا حبُّنا معلناً واطلع عليه أمها وأخوالها. كما ألمَّ به أصدقائي في بنت جبيل: موسى الزين شرارة، حسن فياض شرارة، علي بزّي. كان على الحب أن يصير إلى الزواج ـ لكن الزواج لم يكن ميسوراً في مثل حالي وأنا العائد من النجف ناقماً محاصراً مجهول المستقبل والمصير. لكنني ما لبثت بعد تمضية وقت في جبل عامل واشتغالي بالأدب والشعر مع موسى الزين والآخرين أن عدت إلى النجف. أرهف البعد مشاعر الحب، استمرت العلاقة وتصاعدت في رسائل متبادلة لا نزال نحتفظ بها. هذا العشق ألهمني بعض الشعر، كان البعد شاقاً مؤذياً لكنني كنت فيه أشعر بنعيم

الحب ومتعته، بل هوّن عليّ هذا الحب كثيراً من الهموم. كنت أخرج خصلة الشعر التي حملتها معي إلى النجف، أشخص إليها وأناجيها فأشعر أن قدْراً من التعب والضيق قد انزاح عن صدري. كنت إبّان ذلك أشعر بالحب في أعمق معانيه، بل بتّ أنجذب إلى عدد من الأصدقاء والأقارب لمجرد أنهم يشاركونني محنة العشق. في هذا الجو قرأت جبران خليل جبران في الأجنحة المتكسرة وخليل الكافر واجتذبني الجو العشقي فيهما وقادني ذلك إلى قراءة جبران بكامله وإلى نزعة رومانطيقية؛ قدمت سنة 1928 كما ذكرت إلى الشام للدراسة لأغادرها إلى بيروت للتدريس في العاملية. لأقفل بعد سنة إلى الشام حيث وجدت عملاً اغتنمه لأعود إلى جبل عامل للزواج.

□ **هل خفَّ العشق بالزواج؟**

ـ لم يتغير الحب بالزواج وبقي حياً. بل كانت ذكراه وحدها كافية لتبديد أي غيمة بيننا.

**□ ماذا فعلت أم نزار في حياتك؟**

ـ أود أن أذكر أن لأم نزار فضلاً في صمودي أمام كثير من المحن، وفي تجنيبي الكثير من المزالق المادية. بفضلها لم أرهن نفسي لدين أو وظيفة رسمية ولم أرهن نفسي لزعيم أو نافذ لتحصيل العيش على الرغم من صعوبة العيش وضيقه. لقد ساعدتني بتدبيرها البيتي، فأمّ نزار تحب بيتها كثيراً وتحبه عزيزاً غير مرتهن، ومهما كان دخلنا كانت قادرة على تأمين العيش بما يناسب هذا الدخل وضغط الإنفاق إلى حدوده. الأمر الذي سهّل عليَّ أن أصون عزة نفسي وأن أترك العمل حين يهدد بمسّ كرامتي أو الانتقاص منها. كانت تنفق بدون تقتير ولكن بدون خروج عن طاقتنا وإمكاناتنا، لذا أحسست دوماً أن حياتي البيتية أهنأ وأهدأ بالاً من حياة الكثيرين الذين يفوق دخلهم دخلي. أمّ نزار خيّاطة ماهرة ولكونها كذلك كانت تخيط ملابسنا جميعاً بحيث تبدو علينا الأناقة والترف ولم تكن تسعى بحال إلى شيء لنفسها. فلم تهتم بأن

تملك مصاغاً أو ثياباً باذخة بل اكتفت دوماً بالضروري الضروري. منذ زواجنا إلى الآن لم أحمل همّ الدين وعبئه. وكان هذا من أسباب شعور حقيقي بالسعادة؛ ففي ظروف النجف الضيّقة التي سبق الكلام عليها كنت بفضل زواجي منها أملك أن أرفض أيَّ عمل يمتهنني. هذه مناسبة لذكر فضلها والإقرار به. أهديتها مؤلَّفين «مع القافلة» الذي يجمع مقالاتي في الحياة، والطبعة الثانية من «دراسات نقدية على ضوء المنهج الواقعي» وفي صيغة الإهداء ذكرت أن صبرها وتدبيرها وحبها الحقيقي لي أعانني على أن أصير «شيوعياً نقياً» أي أنني لراحتي البيتية لم أنزلق إلى أي انتهازية أو تنازل أو ارتهان، الأمر الذي سهّل عليّ أن أكتب بصدق وصراحة ودون مواربة. كانت زوجتي تتفهّم وتقدِّر دوماً علاقاتي بالناس وقيم الإباء وعزة النفس المتأصلة فيَّ بالإضافة إلى أنها ربّت أبناءنا على هذه القيم، وهم كما أعتقد لا يزالون جميعاً بفضل تربيتهم يعيشون هذا السلوك وتلك المبادئ.

**□ تكلمت على «خصلة الشعر» هل من مظاهر وطقوس غرامية أخرى؟**

ـ عدا عن خصلة الشعر كانت هناك اللقاءات. كنا نلتقي جماعات من العشاق في بيتنا في حداثا. وكانت لقاءات ماتعة كنت أرمز لها في رسائلي باسم الحاج وأرسلها إلى صديقيّ موسى الزين وعلي بزّي لتسليمها لها.

**□ هل تتكلم على التعبير الغرامي؟**

ـ من طفولتي أختصر الكلام ولا أطيق الإعراب عن عواطفي. كان اللقاء والانتظار يكفيان ولم أكن بحاجة إلى أن أنطق بعبارة «أحبّك». لا أزال حتى الآن أحتفظ بعواطفي طيّ نفسي ولا أصرِّح بها لأقرب أصدقائي أو أحبّتي، أترك لسلوكي أن يعبِّر عن مكوناتي، وربما كنت في رسائلي أجرأ في التصريح عنها. على كل حال باتت هذه الخصلة معروفة من أولادي وأصدقائي واعتادوها وألفوها. أنا هكذا أخجل

من التصريح بمشاعري وربما شعرت أنني أبتذل نفسي حين أقوم بذلك.

**□ ألا يتباين هذا مع قراءاتك تلك الآونة والتي هي دفق عاطفي ككتابات جبران؟**

ـ كنت أتأثر بهذه القراءات التي تربّي خيالي وعاطفتي. كنت أكتنز ذلك وأختزنه بيد أني مدين من الجهة الأخرى لقراءتي لطه حسين الذي ألهمني الوضوح والسهولة وقرب المتناول. ويقول قرّائي إنهم يجدون في كتاباتي سلاسة وعذوبة، لا يخفيان حتى في كتاب كالنزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية. فهو واضح حتى للذين لا قِبَل لهم بقراءة الأبحاث الفكرية المجردة.

**□ لم تخيّب العلاقة الجسدية إذن مشاعرك؟**

ـ لم تخيّب مشاعري البتة، لا أفصل على صعيد التجربة بين الجسد والعاطفة.

□ **هل لاحظت أن آخرين يعانون ذلك؟**

ـ كنت أشعر أن بعض أصدقائي يعانون حياة جنسية بلا رصيد عاطفي. هؤلاء كانوا يتحملون افتقار صلاتهم بزوجاتهم إلى العاطفة، حرصاً على كرامتهم وعوائلهم. كنت أشعر دوماً أن حياتهم ناقصة.

□ **والحب والصداقة بوجه عام؟**

ـ إذا عمّمنا الحب، أشعر أنني أختزن في ذاتي وفرة من الحب للناس والأشياء. لكل ما هو جميل وإنساني وواسع وعميق ونبيل. أستطيع القول إنني لم أفسد أي صداقة مع أيّ كان، لم أغدر بصديق ولم أخن صاحباً وأشهد أنه ما من صديق إلا وقدّر فيَّ هذه الخصلة. صلتي بأصدقائي مُذ أصبحت مستقلاً إلى الآن نقية جداً. وفي مقابل ذلك حظيت بحب كثير من أصدقائي. حتى من أولئك الذين يختلفون عني رأياً وتفكيراً.

كان المرح والفكاهة والتفاؤل دوماً عناصر أساسية

في حياتي. فأنا لا أضيق بالحياة حتى في أكثر وجوهها عتمة. ومن حظي أن تفاؤلي هذا يعرفه قرائي وأقراني. ولا يرجع فقط إلى أنني ماركسي وإلى أن الماركسية تتيح لمعتنقها لوناً من التفاؤل أسمّيه بالتفاؤل التاريخي، بل يرجع بالنسبة ذاتها إلى حسن صلتي بالناس. إلى كوني كنت دوماً مغموراً بمحبة الناس لي وحبي لهم. هذا الحب كان دوماً بين بواعث تفاؤلي. إذ مهما ضاقت الأحوال وتجهمت ودعت إلى اليأس أشعر أن هذا الحب يضيء حياتي كلها.

كثير من القراء كانوا يسألون في رسائلهم: لماذا تشعر بهذا التفاؤل والحب للناس؟ لفرط ما عندي من حب للناس والحياة والقضية التي ألتزمها. لم أخن مرة عاطفتي وفكري ولم أوارب فيهما.

**□ كيف تنظر إلى الحب خارج الزوجية؟**

ـ يمكن للحب أن يكون خارج الإطار الزوجي.

**□ هل لاحظت بين أصدقائك من يمتهن زوجته؟**

ـ كنت أتدخل ولو من بعيد في حياة أصدقائي العائلية. أذكر أن أحد أصدقائي كان يسيء معاملة زوجته. فلم أصرِّح له بموقفي من سلوكه لئلا يخجل من هذا التدخل أو يضيق به لكنني أشعرته بسلوكي ومن بعيد بأنني غير راضٍ عن طريقته. هذا النقد السلبي أشعره بأخطائه وأعانه على تقويم سلوكه.

**□ نعود إلى قراءاتك. ما هي القراءات التي استأثرت باهتمامك الأول؟**

ـ قرأت في مطلع شبابي (السادسة عشرة) أعداداً من الرسالة لأحمد حسن الزيات والمقتطف والهلال. ثم باشرت قراءة طه حسين وإسماعيل مظهر صاحب كتاب «العصور» ذي الاتجاه المادي، بالإضافة إلى قراءة «العرفان» التي بدأت تستقبل نتاجي من مقالي الثاني. ثم وجدتني مسوقاً إلى قراءة العديد من الكتب العلمية والفكرية التي تصدر في القاهرة أو بيروت وخصوصاً تلك التي تصدر في القاهرة.

**□ ألم تجعلك تربيتك الدينية تتردد في قبول أفكار طه حسين وإسماعيل مظهر؟**

ـ صراعي مع المحيط النجفي ونظام التدريس الديني حفزني إلى قراءة ألوان من الكتب من منطلق طلب الحقيقة وحدها، لذا لم أجد حرجاً في تقبُّل هذه الأفكار وفهمها أياً كان بُعدها عن منطق الدين، أي إنني تحرّرت في السنوات الأولى من القمع الإيديولوجي والتعصُّب الديني. ذلك جعلني أتابع بذهن مفتوح ما يُكتب في موضوعات تخترق هذه الأيديولوجية وتنتقدها. فمن منطلق طلب الحقيقة وجدتني جادًّا في الاطّلاع على فكر الآخر نهماً لمعرفته. بل دفعني ذلك إلى السعي إلى فهم موضوعات ذات طابع علمي بحت كتلك التي كنت أجدها في المقتطف.

**□ من هم الكتّاب الذين كانوا محور تأثرك؟**

ـ طه حسين وإسماعيل مظهر وشبلي الشميِّل بالدرجة الأولى وخصوصاً في تقديمه للداروينية.

**□ والجانب الأدبي «الديوان» مثلاً؟**

ـ أعجبت بالديوان وخصوصاً في نقده لشعر شوقي. ملت لشغفي بالتجديد إلى مثلّث العقاد المازني طه حسين: العقّاد لتعميقه موضوعات فكرية يعالجها بأسلوب مكثف لا إطالة فيه ولا إسهاب، المازني لروحه المرحة، ولأنني كنت أشعر أنه في كتاباته فنّان كبير. لكن على الرغم من التباعد بين فكر العقاد والمازني من جهة وطه حسين من جهة أخرى فإنني لم أستسلم لمنطق أيّ منهما. كنت أقرأ الجميع بدون أن أنخرط في خط أي منهم.

**□ أيُّ الكتب لهؤلاء اجتذبك؟**

ـ طه حسين في بحوثه حول الأدب العربي القديم (حديث الأربعاء). وابن الرومي، حياته شعره، للعقاد. وهو أول كتاب يتناول بمنهجية جديدة الشعر القديم. وكان لهذا الكتاب تأثيره الضمني في قراءتي النقدية لكثير من الآثار. أما المازني فكنت على إعجابي

بأسلوبه أنفر من شيء من العدمية كنت أشعر به في كتاباته. وأنا من ذلك الوقت نافر من العدمية.

كذلك قرأت «علم الاجتماع» لنقولا حداد وكتابات فرح أنطون.

□ **تجمع بين جبران والشميِّل وطه حسين. تزاوج بين اتجاهات مختلفة.**

ـ حب الاطّلاع بحدِّ ذاته كان كافياً ليجعلني أستمتع بكل الأفكار على الرغم من اختلافها. كان همي أن أختزن وأقرأ وأطّلع. لكني بدأت أكثر فأكثر أنحاز إلى الفكر الذي لا أزال في خطه، الفكر المادّي. قرأت «أصل الأنواع» وتابعت بعده هذا الخط من الفكر في العديد من الكتب الصادرة في القاهرة حين كانت القاهرة مصنعاً هائلاً للفكر العربي الحديث.

□ **كيف قرأت كتّاباً آخرين في تلك الآونة؟**

ـ كان يعجبني أحمد أمين بطريقته في كتابة التاريخ، بتعميق للبحث وبفكر غير متعصّب. في تلك

الآونة كان المنفلوطي يتألق بكتاباته ولم يجتذبني أسلوبه على الرغم من أنني كنت في الطور الأول من تكويني، قرأت «بلاغة العرب» وهو كتاب يضم منتخبات من أدباء المهجر وداومت على قراءته. كان يستهويني من أدباء المهجر جبران وقصص نعيمة وشعر إيليا أبي ماضي.

وبشكل عام، عدا عن ميلي للفكر المادّي، لم ألتزم خطاً أدبياً وفكرياً محدداً.

**□ لم تذكر مصطفى صادق الرافعي، كان له تأثيره على العامليين؟**

ـ كنت أقرأ مقالاته في الرسالة وأعجبني أسلوبه العربي المركّب بشكل جذاب لكنني لم أمل إلى أفكاره.

**□ كيف زاوجت بين أساليب متباينة إلى هذا الحدّ جبران/ الرافعي/ طه حسين؟**

ـ كينونتي الأسلوبية حصلت من تلاقح الأساليب.

كتاباتي الأولى متأثرة أكثر ما يكون بجبران، وبقيت مسحة أسلوبية من طه حسين (السلاسة، الوضوح، الإيقاع الداخلي) لم يكن للرافعي التأثير ذاته وإن أمتعتني صوره الذهنية المجرّدة وتعقيداته (من المفارقة أنها كانت تعجبني على الرغم من إيثاري للبساطة) لم أتأثر بأسلوبه ولا بتفكيره.

□ **والشعر، من فضَّلت من الشعراء؟**

ـ بدوي الجبل أول شاعر معاصر أحببته، حفظت كل شعره تقريباً وكان يغريني فيه الوهج اللفظي وجمال المفردة والإيقاع. أحببت ولا أزال وعلى الرغم من كل ما يقال عن شعر أحمد شوقي وخصوصاً شعره التاريخي (قصيدة النيل) التي لا أزال أعاود قراءتها. أما الجواهري فترقى معرفتي له إلى العشرينيات لكنه لفت نظري كثيراً وكتبت عنه مقالات عدة.

□ **لم تكتب عن بدوي الجبل؟**

ـ لم أكتب عن بدوي الجبل، فتأثيره عليّ انقطع

وزال. بات يكرر نفسه لمحدودية أفقه، على الرغم من متعة صوره وجماليته. أحصيت ذات مرة ألفاظاً وصوراً وجدتها متواترة في شعره فكانت كثيرة جداً. في رأيي أن بدوي الجبل كان في وسعه أن يكون أعظم شعراء العرب لو اتسعت ثقافته؛ فضحالته الثقافية هي التي جعلته يكرر نفسه.

□ **هل الجواهري واسع الثقافة؟**

ـ الجواهري متمكّن كلّياً من الثقافة العربية ويعرف الشعر العربي القديم عن ظهر قلب.

□ **ماذا عن الشعراء المهجريين؟**

ـ بين المهجريين كان أبو ماضي له تأثيره وغير أبي ماضي كانت هناك قصائد قليلة لنعيمة.

□ **لكنّ أبي ماضي غير بدوي الجبل والجواهري؟**

ـ كان أبو ماضي يمتلك الفكرة الشعرية التي

تستهويني. أصاب أبو ماضي حداً متوسطاً من الثقافة العربية قابلهُ حدّ من الثقافة الغربية. كتبت عنه عدة مرات. المهم أن ينمَّ الشعر عن موهبة وخصوصية وغنًى داخلي ووهج فنّي وهو ساعتئذ يفرض نفسه كيفما كان.

□ **والشعر العاملي؟**

ـ كانت سنّي صغيرة حينما غادرت جبل عامل إلى العراق، لذا لم يكن للشعر العاملي تأثير مباشر عليّ فأنا بدأت وعيي الفكري والأدبي في العراق.

□ **والرواية؟**

ـ لم أقرأ في تلك الفترة روايات تستهويني، روايات فرح أنطون تعليمية مباشرة. أما أيام طه حسين فهي أقرب إلى السيرة الذاتية منها إلى الرواية. قرأت في الفترة ذاتها رواية «زينب» لمحمد حسنين هيكل ولم تعجبني.

□ **هل تأثرت بموجة تجديد الموضوع الديني؟**

ـ انحصر إعجابي بالمجددين الدينيين في الأفغاني وعبده والكواكبي، أما كتابات طه حسين وهيكل والرافعي فلم تضف جديداً.

□ **هل تابعت لطفي السيد؟**

ـ كنت معجباً بصحيفة السياسة الأسبوعية لسان حال الأحرار الدستوريين أما أحمد لطفي السيد فتابعته ولم أتأثر به.

□ **وتوفيق الحكيم؟**

ـ كنت معجباً بحوارياته ومسرحياته وتابعتها بمتعة وخصوصاً «أهل الكهف».

□ **كيف اتصلت بالماركسية؟**

ـ لم تكن لي في النجف صلة بالماركسية إلّا ما تناهى إليّ منها عبر المؤلفات التي تندرج في الفكر المادّي وسبق أن ألمحت إليها؛ فالفكر المادي في

أصل كينونتي الثقافية المادّية. أما أول الكتب الماركسية التي اطّلعت عليها فكان «البيان الشيوعي» الذي قرأته في بغداد بعد أن أعارنيه الشهيد حسين محمد الشبيبي أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الذي أُعدم في عام 1948 مع فهد. بعد «البيان» اطّلعت على كتاب لينين «الدولة والثورة».

□ **ذكرت حسين الشبيبي هل تعرفت إلى قيادة الحزب؟**

ـ لم أتعرف إلى «فهد» شخصياً لكنني تعرفت في بغداد إلى قيادة الحزب الشيوعي في جملة من تعرفت إليهم في الجو الثقافي والصحافي والسياسي في بغداد. فقد كنت لدى انتقالي إلى بغداد معروفاً إلى حدٍّ ما، فلم أجد صعوبة في تكوين علاقات بالوسط الثقافي والسياسي العراقيين. أمضيت العام الأول من إقامتي ببغداد في خط الفكر القومي (حزب الاستقلال) المعادي للشيوعيين؛ وإن أكن حظيت على الرغم من ذلك بصداقات كثيرة بين الشيوعيين واليساريين، لم

أبدأ التحول إلى الماركسية إلّا بعد ذلك ولدى قراءتي البيان والدولة والثورة. فاطّلاعي على هذين الكتابين أثار اهتمامي بالماركسية ودعاني إلى التماسها والبحث عنها. بقيت صلتي بحسين الشبيبي سرّية.

**□ متى بدأت الانحياز إلى الحزب الشيوعي؟**

ـ كان ذلك أيام الوثبة الوطنية المعروفة 1948 التي استشهد فيها جعفر الجواهري. شاركت في الوثبة وشهدت فصول الانتفاضة الشعبية يوماً بيوم. كنت أسير في التظاهرات وأكتب مقالاً يومياً في جريدة «الرأي العام» للجواهري. كنت حريصاً على أن تنجح الانتفاضة خائفاً من أن تغرق في الفوضى والصراعات الجانبية، لذا كنت أراقب أجواء التظاهرات خشية أن تنشز أو تختلّ أو تضطرب، وما إن يتراءى لي أن شخصاً يخرّب أو يشوّش حتى أتصل بقادته وأرشدهم إليه ليكبحوا جماحه. أذكر أنني سمعت في يوم هتافاً ضد الشيوعيين فوجدت نفسي أثب إلى صاحبه وأضربه. وما إن ثبت إلى نفسي حتى كنت أول

المدهوشين مما فعلت، لكنني كنت مدفوعاً إلى ذلك بخشيتي من فشل التظاهرة وسقوط الانتفاضة. هذا الاهتمام جعل نصب عينيّ ملاحظة ممارسات شتى أحزاب الانتفاضة ومتابعة تحركاتها. كنت أوازن بين الممارسات والتصريحات والمواقف، فوجدت بجلاء أن الشيوعيين كانوا أحرص الجميع على نجاح الانتفاضة وسلميّتها وصيانتها من الفوضى والتخريب والاعتداء بل كانوا بحقّ صمّام أمان الانتفاضة، فعناصرهم كانت تسور التظاهرات من الجانبين لمنعها من الخروج عن خطها والانزلاق إلى التخريب. استمرت التظاهرات في تدفُّقها من كل أرجاء العراق أربعين يوماً من دون أن يُعتدى على محل أو يُخدش إنسان وكنت متأكداً من أن سلوك الشيوعيين هو الذي صانها من ذلك. انتهت الانتفاضة بالنجاح وتشكلت وزارة وطنية شارك فيها حزب قومي. ما إن دخل الحكم حتى تخلّى عن أهداف الانتفاضة وشعاراتها وبات كل همه أن يبقى في السلطة. وانطلاقاً من

موقفي الوطني وملاحظتي الموضوعية لسلوك ومواقف شتى الأحزاب، صرت على يقين من أن الشيوعيين وحدهم يتحملون بمواقفهم وسلوكهم اليومي عبء صيانة الإنجاز الأساسي للانتفاضة.

من هنا تكوّن عندي ميل للشيوعيين، يتقاطع مع نظرتي المادّية وموقفي الوطني. ومن هنا بدأ تحولي الحاسم إلى الشيوعية، رافق ذلك نهم إلى الاطّلاع على الفكر الماركسي في مؤلفاته الأساسية. لكنني على الرغم من ذلك لم أنتمِ عضوياً إلى الحزب الشيوعي العراقي، فلم تكن نضجت عندي بعد فكرة الانتماء الحزبي.

□ **ما هي المؤلفات الماركسية التي اطّلعت عليها آنذاك؟**

ـ البيان الشيوعي وأبحاث ومقالات في المجلات وفي «الطريق» بوجه خاص وكتاب ستالين «المادّية الديالكتيكية» الذي كان له تأثير مباشر في دراسة الفكر ألف باء المادّي العلمي.

**□ ماذا فعلت بعد الانتفاضة؟**

ـ تابعت الكتابة في الصحف والمجلات في الموضوعات الوطنية والفكرية، وكان آخر مقال نشر لي في بغداد مقال بعنوان «العقل والعاطفة عند نوري السعيد» رداً على دعوة نوري السعيد الناس إلى التعقُّل. في هذا المقال حاولت تفسير ماذا يعني نوري السعيد بالعقل وماذا يعني بالعاطفة. ثم اتفق أن جاء نوري السعيد إلى الحكم في أعقاب أسبوع من نشر المقال ولم ينقضِ أسبوع حتى أُخرجت قسراً من العراق.

**□ هل كان تحوّلك إلى الشيوعية ضمن موجة عامة من المثقفين؟**

ـ كان تحوُّلي ضمن جو جارف بين المثقفين العراقيين. بعد قيام الحكم الوطني حصلت على امتياز جريدة باسم «السيّار» وهذا الاسم لم يأتِ اعتباطاً فقد استعرته من اسم جريدة يوسف إبراهيم يزبك التي كنت

أتتبعها وأحبها. أصدرت من هذه الجريدة عدداً واحداً صودرت بعده وأُلغي امتيازها، هذا العدد للأسف غير موجود عندي، الخلاصة أنني أُبعدت من العراق وكان ذلك في 9 حزيران 1949.

**□ يذكّر ذلك بعاملي آخر هو صدر الدين شرف الدين الذي أُبعد لمواقفه من انتفاضة 1948؟**

ـ كان صدر الدين يصدر «الساعة» وعندما عدت إلى بغداد وجدته قد ذكر دون علمي بأنني سأشارك في التحرير. سرتني هذه البادرة وواظبت من ذلك الحين على كتابة مقال يومي في جريدة «الساعة» بعنوان صباح الخير.

**□ كنت تعمل كثيراً إذن؟**

ـ أثناء الانتفاضة كنت أكتب مقالين يوميين في «الساعة» و«الرأي العام»، بالإضافة إلى 63 ساعة أسبوعية في التدريس في عدة مدارس ليلية ونهاريّة،

كما كنت أكتب أيضاً مقالاً أسبوعياً في جريدة الحضارة لمحمد حسن الصوري. كنت أقول ذلك الحين إنني أنتظر «نهاية» الحرب لأنام 24 ساعة كاملة.

□ **ماذا جرى بعد إبعادك؟**

ـ أُبعدت من العراق فوجدت نفسي بدون أوراق هُوية. فقد حرمتني السلطات من هُويتي العراقية وكنت فقدت وثائق الهُوية اللبنانية؛ أمّن لي كاظم الصلح الذي كان سفيراً للبنان في العراق laisser-passer ليتاح لي أن أجتاز إلى لبنان.

□ **عدت إلى لبنان بلا هُوية ولا عمل، كيف تدبرت ذلك؟**

ـ عدت إلى بيروت فعلاً بلا هُوية ولا عمل. أما الهُوية فكانت ميسورة. عدت إلى سجل العائلة وحصلت على الهُوية، أما العمل فكان مشكلة فعلية.

زاد الأمر تعقيداً أن صيتاً بالشيوعية سبقني إلى لبنان على الرغم من أنني لم أكن منتمياً إلى حزب شيوعي. أذكر أن أصدقائي القريبين حاولوا أن يدبروا لي عملاً وخطر لهم أن أتوظف قاضياً شرعياً نظراً لتعليمي الديني، لكن المشروع فسد لأمرين: أولهما أنهم عرضوا الأمر على صديق نافذ فرفض أن يتبنى الأمر بحجة شيوعيتي. والثاني هو أنني ما كنت لأقبل هذه الوظيفة بالذات فضلاً عن رفضي المبدئي لأية وظيفة أخرى. لكن مبادرة من المرحوم كامل مروّة حلّت المشكلة إذ دعاني للعمل في جريدة «الحياة» واستجبت بدون تحفُّظ وبدأت أعمل فيها فور وصولي. باشرت كتابة زاوية يومية سميتها «أدب» ثم تحولت عن هذا العنوان إلى آخر هو «مع القافلة»، العنوان ذاته يشير إلى هُوية الزاوية اليسارية فالقافلة المعنية هي قافلة التقدم. الزاوية كانت مفتاح الدخول إلى أوساط مثقفين وكتّاب وحتى إلى أوساط ناس عاديين.

**□ كيف أمكنك أن تعمل في جريدة يمينية غربية الاتجاه كالحياة. هل أذن لك الحزب؟**

ـ لم تكن لي صلة بعد بالحزب الشيوعي، فلم أحتج إلى إذنه، أما في ما يتعلق بي فلم أكن مستعداً للتنازل عن خطي واتجاهي، وإن في جريدة لها خط «الحياة». كنت دوماً على استعداد للتخلي عن العمل على حاجتي إليه، إن كان ثمن ذلك التحول عن خطي وموقفي. وعلى كل حال فإن كامل مروّة كان أذكى من أن يضعني أمام هذا الخيار، فقد ظهر في ما بعد أن هذا الشكل من التناقض كان في مصلحة الجريدة، إذ كان يعزو لها حرية تعبير وديموقراطية وتنوّع آراء. لم يكن كامل مروّة في الحقيقة يمارس أي ضغط عليّ لذا كنت أكتب بحرية والقراء على اختلاف انتماءاتهم كانوا يلاحظون التناقض بين الزاوية واتجاه الجريدة، كما ويلاحظون في الوقت ذاته نغمة جديدة في الصحافة اليومية، فقد كنت أكتب الزاوية من منطلقات تقدمية وبقالب فنّي جذاب يستهوي القراء. كان كامل

مروّة كثيراً ما يقول لي إن هذا الزعيم أو هذا المثقف أو هذا السياسي معجب بمقالاتك. تلك كانت فترة النهوض الوطني والتقدمي الذي عاصر موجة الانقلابات العسكرية. ومقالاتي كانت تعبّر عن هذا المدّ وتتمثله. حينما قدمت إلى لبنان كان اسمي وتاريخي ككاتب مجهولين تماماً إلا من أصدقائي العامليين. ولانتشار الحياة في لبنان والدنيا العربية انفتح أمامي أفق للكتابة والشهرة.

واظبت على زاويتي في الحياة سبع سنوات وتركت العمل فيها 1957 غداة مقتل نسيب المتني. فقد وجدت أن موقفي من هذا الحدث فوق طاقة الجريدة. كان عليّ أن أقول رأياً فيه. ولم يكن كامل مروّة نظراً لدقة الظرف مستعداً «لخردقة» الجريدة برأيي. لذا انقطعت فوراً عن الكتابة دون أن أُخطر أحداً. وحين تلفن لي كامل مروّة أخبرته أن لا مجال للعودة. هكذا غادرت عملي بعد سبع سنوات دون تعويض أو ما شابه ذلك.

كنت على كل حال محتاطاً دوماً لإمكانية الخروج من «الحياة» لذا كنت أعمل في الوقت ذاته في التدريس. كنت أدرِّس الأدب العربي والفلسفة الإسلامية.

□ **كيف اتصلت بالحزب الشيوعي؟**

ـ كنت أكتب كما سبق أن قلت بنفَس تقدمي واضح عنيف حول كل ما يجري في لبنان أو البلدان العربية. وبصورة خاصة ثورة 23 يوليو المصرية التي حملت زاويتي مواقف تؤيدها وتحيِّي قائدها. كما كنت أحرّر الصفحة الثقافية الأسبوعية في الحياة. لفتت كتاباتي في الزاوية والصفحة أنظار الشيوعيين والبعثيين أيضاً. وكان هؤلاء وأولئك كل من جهته يرى أنني أكتب في اتجاهه. اتصلت ببعض قيادات الحزب الشيوعي (أنطون ثابت فنقولا الشاوي ففرج الله الحلو). وحدث أن كتبت بمناسبة ذكرى عمر فاخوري مقالاً قلت فيه رأيي في عمر فاخوري فكراً وفناً وكان هذا المقال، من حيث لا أحتسب، يتناول عمر

فاخوري من الوجهة التي يتناوله فيها الشيوعيّون ويضعه حيث يضعونه. كان هذا المقال فاتحة ارتباط بالشيوعيين. فكان أن طلبوا مني أن أكتب مقالاً للطريق فكتبت مقالاً بعنوان «ابن سينا» فكرة تقدمية، ثم أخذت الصلة تتعمق وتأخذ مداها الفكري والشخصي. وهكذا التقيت بعد برهة قصيرة الرفيقين نقولا شاوي وفرج الله الحلو. ومن هذا اللقاء تولّد مشروع إنشاء مجلة ثقافية هي المجلة التي عرفت باسم «الثقافة الوطنية». وعلى طريق التحضير للمجلة اتصلت بمحمد دكروب الذي كان يعمل سمكرياً في صور ويكتب في جريدة التلغراف مقالات وأقاصيص ذات اتجاه تقدُّمي واضح. كنا اتفقنا على أن يشاركنا هذا الكاتب الكادح في تأسيس المجلة وتحريرها، لذا ذهبت إلى صور وزرته في محله وعرضت عليه أن يذهب إلى بيروت ليزاول عملاً يرتزق منه في محل بيع ورق لمحمد علي المسكي، تاجر من أصل شامي لا يمتّ إلى الشيوعية بشيء. جاء محمد دكروب فعلاً إلى بيروت وحلّ في العملين، في محل بيع الورق وفي تحرير الثقافة

الوطنية، وهكذا أنشأنا الثقافة الوطنية 1951 بتحريري أنا ومحمد دكروب وبإشراف فرج الله الحلو. في ذلك الوقت كنت أزاوج بين الكتابة في «الحياة»، و«الثقافة الوطنية» بدون حرج. وبإنشاء الثقافة الوطنية عام 1951 صرت عضواً في الحزب الشيوعي، ثم انتظمت في صفوف أنصار السلم عام 1954. وهكذا توزع عملي الفكري والسياسي بين ثلاث جهات: «الحياة» وحركة أنصار السلم، و«الثقافة الوطنية».

***

**□ هل كان فرج الله يتدخل مباشرة في التحرير؟**

ـ كان إشراف فرج الله يقتصر على اقتراحات ولكن كتابتي وكتابة محمد دكروب لم تكن تمر على رقابة مسبقة.

**□ ماذا كان يطال الإشراف الحزبي إذاً؟**

ـ كان الإشراف الحزبي يقتصر على الخط

السياسي. بدأنا بمواجهة الأحلاف العسكرية، وكنت أشارك في تعبئة المثقفين الذين كنت على صلة معهم حول مواقف وطنية وتقدمية وفي سبيل السلام العالمي، واستطعنا أن نشرك في نشاطاتنا أمثال يوسف غصوب، وبشارة الخوري، وحتى إدوار حنين، أما سعيد عقل فشارك في احتفالاتنا. أذكر أنه تكلم في حفل استقبال ناظم حكمت. وأنشأنا جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفياتي، وكنت من مؤسسيها وكان من أعضائها نقولا فياض ومارون عبود الذي كنا على صلة وثيقة به، فقد كان من المسهمين المثابرين في الكتابة للثقافة الوطنية، كما أننا عقدنا في الجمعية ندوة حول فكره وأدبه.

□ **ما هو مدى انتشار «الثقافة الوطنية»؟**

ـ كان يباع من الثقافة الوطنية 1000 نسخة في القاهرة وحدها كما كانت تباع في كل البلدان العربية ويشارك في تحريرها كل الكتّاب التقدميين العرب.

**□ ألم يكن للخط السياسي تجلّيات ثقافية؟**

ـ كانت التوجيهات الحزبية لا تتعدى الخط السياسي العام، ولهذا الخط تجلّياته الثقافية التي تتناول الموقف العام. الواقعية الاشتراكية، وكشف العناصر التقدمية في التراث... الخ.

**□ ألم توجد تباينات وخلافات بين جماعة الثقافة الوطنية؟**

ـ كانت هناك اختلافات في المواقف في إطار الانتماء القومي العام. أذكر كأمثلة: الموقف من بيكاسو أو من كتاب جارودي واقعية بلا ضفاف، ولم تكن هناك خلافات حول صلة الأدب بالسياسة أو النظرة إلى الحداثة في الأدب والفن التشكيلي.

**□ هل تميزت المجلة بموقفها السياسي وحده، أم كان لها مساهمات في صلب المسائل الفنية والثقافية؟**

ـ كان لنا إسهام في نقاش الحركة الشعرية

الحديثة ولي مقالات كثيرة في هذا المجال ولمحمد دكروب أيضاً. كما أننا أصدرنا سنة 1956 كتاباً بعنوان «في المعركة» لم تكن مساهماته على الرغم من توجُّهها النضالي ذات طابع سياسي صارخ.

**□ هل ساهمتم في إغناء الحركة الشعرية الحديثة أم اكتفيتم بالانفتاح عليها؟**

ـ شاركنا في إغنائها ودفعها ولم نكتفِ بالانفتاح عليها.

**□ ما هو محلكم من السجال حول الشعر الذي كانت الثقافة الوطنية إلى جانب مجلة الآداب ومجلة «شعر» من أطرافه؟**

ـ مجلة شعر في اتجاه «الفن للفن» وكنا ضده، كنا مع الحركة الشعرية الحديثة وقصيدة النثر ولكننا رفضنا استقلال الشعر بالمطلق. لذا ووُجهنا بأننا ضد الحركة الشعرية الحديثة وهذا غير صحيح. عناصر

«شعر» كانوا يدعون إلى الابتعاد عن السياسة وموقف الفن للفن بحدّ ذاته سياسة، مجتمع مجلة شعر لم يكن بعيداً عن السياسة في حين يدّعي غير ذلك. كنا نصرّ على صلة الفن بالسياسة والواقع الاجتماعي.

□ **أذكر أن الثقافة الوطنية كانت ذات موقف من التراث؟**

ـ كنت أكتب «مقالاً أسبوعياً حول شخصية من التراث»، ملتمساً العناصر التقدمية في نصوص أهل التراث وسيرهم. نشرت المقالات في كتاب صدر مؤخراً بعنوان «عناوين جديدة لوجوه قديمة».

□ **أنت حزبي من سنة 1951 أين هو مجال عملك الحزبي؟**

ـ عملي الحزبي في الإطار الثقافي وحركة أنصار السلم التي كانت تتطلب نشاطاً متتابعاً وتحركاً مستمراً. أذكر أننا عقدنا مؤتمراً للدفاع عن الشرق الأوسط عقد بشكل سرّي في بيت أنطون ثابت وقدمت تقريراً فيه،

وحضره مندوبون من مختلف أقطار الشرقين الأدنى والأوسط.

□ **هل سبق أن قمت بمهمات تنظيمية؟**

ـ لم أعمل في المجال التنظيمي. بدأت عضواً في هيئة قاعدية أذكر أن الفرقة التي كنت أنتمي إليها كانت تضم كاتباً وحِرفياً وعاملاً وكانت تعمل بانسجام.

□ **أنت عضو في اللجنة المركزية، هل كان لك دور في الخلافات التنظيمية أو في الأزمة التنظيمية؟**

ـ أنا عضو في اللجنة المركزية من سنة 1965 تقريباً، لم أكن حاضراً في الخلافات التنظيمية. فقد كنت يومئذ في العراق، ولكن كان لي دور في الأزمة التنظيمية عام 1967. فقد كنت مع جناح الشباب الذي هو الآن في قيادة الحزب. وشاركت كعضو في اللجنة المركزية بفعالية في الصراع وفي الاجتماعات كافة التي انعقدت حوله وفيه.

**□ من سمّاك للجنة المركزية؟**

ـ سمّاني المكتب السياسي قبل المؤتمر الثاني عام 1968 وانتخبت انتخاباً في المؤتمرات الثاني والثالث والرابع ولم تُمْلِ عليّ هذه التسمية انخراطاً أكبر في المجال التنظيمي، بقي عملي الأساسي ثقافياً.

**□ هذا العمل الثقافي قيادي ولا شك، هل يدخل في صياغة البرنامج التثقيفي الحزبي، في الإشراف على الإعلام الحزبي، في صياغة التوجهات الثقافية للحزب، في تحديد علاقات الحزب بالمثقفين وأُطرهم؟**

ـ كان لي الإسهام في صياغة البرنامج التثقيفي الحزبي وعملت فيه. لست في موقع إشراف على الصحافة الحزبية، وكانت لي يد في صياغة التوجهات الثقافية للحزب، وللحزب ثقة بما أكتب. أمّا في مجال علاقات الحزب بالمثقفين فقد كنت في صميم هذه العلاقات.

□ **وفي الخلافات مع المثقفين؟**

ـ أضرب مثلاً على ذلك العلاقة برئيف خوري. جئت إلى لبنان والصلة برئيف خوري متأزمة. لكنني على الرغم من ذلك واظبت على صلتي الشخصية به وسعيت دوماً مع محمد دكروب إلى وضع رئيف خوري في موقعه الماركسي الذي كان أهلاً له. وهناك حادثة ذات شأن في هذا السياق يهمني أن أذكرها: عقد سنة 1956، في بلودان في سوريا، المؤتمر الثاني للأدباء العرب، وفي هذا المؤتمر انعقدت ندوة حول الثقافة العربية تكلم فيها بدر شاكر السيّاب وتحامل في كلامه على الأدباء المشهورين ونعتهم بالتقليديين وسمى منهم كتاباً كانوا حضوراً في المؤتمر: طه حسين، ميخائيل نعيمة، رئيف خوري، ولما كان اسم السيّاب ذلك الحين مقترناً بالاتجاه التقدمي إن لم نقل الشيوعي، فقد خشيت أن يُحْمَلَ هذا الموقف على الشيوعيين والتقدميين وهم براء منه

لذا اضطررت لتقديم وجهة نظر مخالفة، وهكذا قدّمت مداخلة كانت دفاعاً عن الأسماء الأدبية الكبيرة التي نال منها السياب. ذكرت عدداً من هذه الأسماء وتوقفت ملياً عند رئيف خوري الذي أثنيت على فكره وأدبه وثمنتهما عالياً ورددت الهجوم الذي وجّهه إليه السيّاب فما كان من رئيف خوري إلا أن وقف وعانقني فرحاً على الرغم من أن صلة رئيف خوري بالحزب كانت لا تزال ذلك الحين في تأزّمها. هذه الحادثة كانت فاتحة تحسُّن في صلة رئيف بالحزب استمر بالتصاعد إلى أن استعاد رئيف علاقته الصحية بالحزب، واستعاد اعتباره الفائق من قبل المثقفين الحزبيين.

هذا الموقف تجاه رئيف كان بمبادرة شخصية، ومن دون توجيه حزبي لكنني بعد المؤتمر انتقلت من بلودان إلى دمشق حيث التقيت رفاقاً قياديين كان فرج الله حاضراً بينهم وذكرت لهم هذا الموقف الذي اتخذته ففرحوا به وتبنَّوه.

□ **وهاشم الأمين؟**

ـ أما ما يتعلق بهاشم الأمين فقد بقيت صلتي به قائمة وحاولت أنا ومحمد دكروب أن نغيِّر موقفه من الحزب وموقف الحزب منه. ونجحت المحاولة من وجهة الحزب وفشلت من جهة هاشم الذي كان لا يزال متأثراً من الأزمة التي حدثت بينه وبين الحزب وكان متأثراً من العمق بحيث لم يُكتب لمحاولتنا النجاح.

□ **هل تعرَّضت كتاباتك أو أفكار لك لرقابة حزبية؟**

ـ للحقيقة أشهد أنني لم أكتب مقالاً واحداً وعرضته على جهة حزبية قبل نشره أو لقيت عدم موافقة عليه بعد نشره على الرغم من وفرة ما كنت أكتبه في الخمسينيات والستينيات.

□ **ألا يعود ذلك إلى انضباط ذاتي؟**

ـ يعود ذلك إلى التزامي الكلّي وانضباطي واقتناعي الكامل.

**□ هل سبق لك مرة أن كنت في خلاف فكري أو سياسي مع الحزب؟**

ـ لم أدخل مرة في خلاف سياسي أو فكري مع الحزب، يرجع هذا إلى اقتناعي التام بالفكر الذي اتخذت منه مرشداً ودليلاً وكنت على استعداد كامل لأن أقف موقف المعارض حين أرى ما يناقض تفكيري أو نهجي في عمل الحزب.

**□ في كتابك «دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي» تبدو أكثر رحابة من نقّاد واقعيين عرب آخرين.**

ـ صدرت دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي عام 1965 كمساهمة في الخط الواقعي النقدي إلى جانب مساهمات محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس. حافظت على رحابة وانفتاح تجاه أكثر الأفكار اختلافاً وبعداً. فحين تناولت كتاب عبدالله القصيمي «العالم ليس عقلاً» وهو منّي على طرف نقيض، احتفظت بهدوء المعالجة وموضوعية التعاطي مع هذا

الفكر دون تجريح بشخص صاحبه أو بفكره. بل كنت أعرب بين حين وآخر عن تقدير واحترام له حتى علمت أنه كان فرحاً بهذا البحث على الرغم من قساوته النظرية.

قد يكون التسامح جعلني أكثر قدرة على فهم وقبول نزعات وتيارات مختلفة على الرغم من صرامتي وعدم مهادنتي حتى قيل في كتابتي إنها كلها صراع لكنني في الصراع لا أتنازل عن صدق موقفي، كما لا أنتقص من احترامي للمفكر والكاتب الذي أساجله.

ليست الرحابة شأناً أخلاقياً فحسب، لكنها تعود إلى تكويني الفكري والثقافي والشخصي وسيرة حياتي بالذات، كل ذلك كان بعيداً عن التشنج وأقرب إلى المصارحة والصدق في إبداء الرأي والتفكير مع رؤية جوانب إيجابية حين أتعرض لناقد أو كاتب.

□ **يعزى إلى النقد الواقعي العربي أنه لا يُعنى إلا بتخريج المضمون؟**

ـ في كل ما كتبت حول الواقعية في الأدب كنت

أصرّ على عدم الفصل بين الشكل والمضمون وعلى ضرورة تشكيل فنّي للنص الأدبي. أي ضرورة النظر إلى الجمالية الفنية. لكن ظروف المعركة في الخمسينيات، وهي معركة إيديولوجية برأيي، كانت تضعنا أنا وزملائي في صراع حادّ من جهة المضمون، ذلك لأننا كنا ندرك أن المشكلة التي يجري الصراع حولها ليست مشكلة فن بقدْر ما هي مشكلة إيديولوجية تتعلق بمضمون العمل الأدبي؛ ظروف هذه المعركة وضعتنا في صراع مع الآخرين من أجل رد الاعتبار للمضمون الفكري. طبعاً كنا نقول دوماً إن موضوع الصراع هذا هو الفن أي إنّ الكلام لم يكن في يوم عن الكتابات غير الفنية. كان العمل الفني الكامل العظيم نصب أعيننا لذلك لم نتهاون تجاه العمل الناقص من الوجهة الفنية، فقضية الشكل والجمالية الفنية كانت دوماً موضوع اعتبار عندنا لأن فناً لا يكون جامعاً لكل العناصر الفنية الجمالية لا تسميه فناً

أي أنه خارج موضوع الجدل والصراع. فمنذ الخمسينيات حتى الآن ونحن نقول هذا الكلام بوضوح لكل خصومنا في المعركة الذين يصرّون دوماً على أننا لا نرى سوى المضمون في العمل ولا نبالي بغيره.

□ **يعزى إلى النقد الواقعي العربي أنه يُعنى بتطبيق اعتباطي ميكانيكي لظواهر اجتماعية على نصوص أدبية؟**

ـ لا أنكر ولا يصح أن أنكر أن هناك أعمالاً نقدية من الواقعيين انزلقت إلى حالة الآلية، هذا ما لا يمكن إنكاره. لكن لماذا لا يرى خصومنا في المعركة إلّا هذه الأعمال الميكانيكية الصادرة من بعض الواقعيين في حين أننا كنا دوماً نقول باستقلالية الفن عن الواقع الاجتماعي والسياسي غير أن هذه الاستقلالية لا يمكن اعتبارها مطلقة بحيث يغدو النص الأدبي في عزلة عن المضمون والواقع.

لا بد أن يظهر في كل مذهب أو مدرسة أو اتجاه

في عالم الفن نموذج ميكانيكي أو نموذج رديء فهل نسوِّي بين جميع أصحاب المذهب، ونجمعهم في كيس واحد، دون تمايز شخصي. أي تمايز للخصوصية الذاتية. هذا الكلام يجوز أيضاً في الحالة الشعرية.

إذا استعرضنا نماذج الشعر الحديث ألا نرى بينها ما يصل إلى حدّ التفاهة والثرثرة. لا بد أن مثل هذا موجود فهل تهمل حركة الشعر الحديث كلها لأن فيها النماذج الرديئة. كل حركة فنية لا بد أن تحتوي على النموذج الرديء. كذلك كان الشعر القديم وغيره، فالشعراء العظام قلّة نادرة في حين أن التافهين كثرة مفرطة. خلاصة القول ليس حجة على النقد الواقعي أن يكون بين من عالجه ميكانيكيون أو آليون في حين أن هناك نقاداً واقعيين مشهود لهم بالحضور الساطع في عالم النقد الأدبي من دون أن يقعوا في الميكانيكية. لا نستطيع النظر إلى المسألة بالمطلق، فنحن عندئذ نحمل سيفاً ذا حدّين.

**□ يعزى إلى النقد الواقعي العربي أنه بقي على هامش الحركة الفنية والأدبية العربية ولم يضف شيئاً لفهم التطور الفني والأدبي؟**

ـ لو لم يكن النقد الواقعي في مستوى العمل الذي يضيف جديداً لما كانت المعركة أساساً قائمة ولكان النقّاد الواقعيون زمرة تافهين لم تضف شيئاً إلى النقد.. ولو كان الأمر كذلك لانحسمت المعركة من زمن، وبقيت الكرة في ملعب خصوم الواقعية، ولكان الجدل غير ذي موضوع؛ ومن المعروف والواضح أن المنهج الواقعي في النقد مطروح بقوة في السياق الراهن للثقافة العربية.

**□ هناك ماركسيون يرفضون هذا النقد؟**

ـ لا خلاف بين الماركسيين على المنهج الواقعي بل على تطبيقه. والميكانيكية تأتي من خلال التطبيق. أنا شخصياً على سبيل المثال أضع مسألة العنصر الذاتي في العمل الأدبي موضع اعتبار، لأني أعتقد أن الخصوصية الذاتية لها وجود ضروري في كل عمل

فكري أو أدبي، والعنصر الذاتي بالطبع مصدر الجمالية في الفن أساساً. لا بد من التمايز داخل أي مذهب ولا بد أن يكون هذا التمايز صادراً عن عناصر فنية أولاً وذاتية فردية.

**□ كتابك «النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية»، ما هي سيرة هذا الكتاب؟**

ـ هذا الكتاب مشروع بدأ منذ باشرت كتابة مقالات عن شخصيات تراثية فكرية وأدبية في الخمسينيات. هذه المقالات كانت نواة لمقالات ودراسات أخرى حول التراث، وبعد الخمسينيات كانت صلتي بالتراث وتناولي له يتطوران على الرغم من أن أكثر ما كتبت في هذا السياق يدخل في باب النقد الأدبي نظرياً وتطبيقياً بدليل أن أكثر الشخصيات التي تعرّضت لها كانت أدبية، لكن ظرفاً فكرياً أحاط في أواخر الستينيات كان هو الدافع لنوع من التخصص في كتابة واسعة ومعمَّقة في التراث الفكري العربي الإسلامي وفي الفلسفة العربية الإسلامية بالذات.

نشأت هذه الفكرة نشأة تطورية عندي ثم دخلت عناصر تاريخية لا داعي لذكرها، وضعت أمامي مُهمة تأليفية متخصصة واحتاج ذلك مني إلى تفرُّغ تام لأكتب دراسة متماسكة تستغرق مساحة تاريخية في الفكر العربي ذات شمول وعمق. وهنا يجب القول بصراحة إن الحزب الشيوعي كان له الفضل في إعطائي التفرغ الكامل لإنجاز هذا العمل، مما مكّنني أن أعيش عشر سنوات كاملة مع موضوع هذا الكتاب من دون أن تعيقني عن البحث أيّ مُهمة أخرى، ولولا هذا التفرّغ التام الذي أعطانيه الحزب لما استطعت أن أكتب بهذه الشمولية وبهذا العمق إذا صحَّ لي أن أدّعيهما.

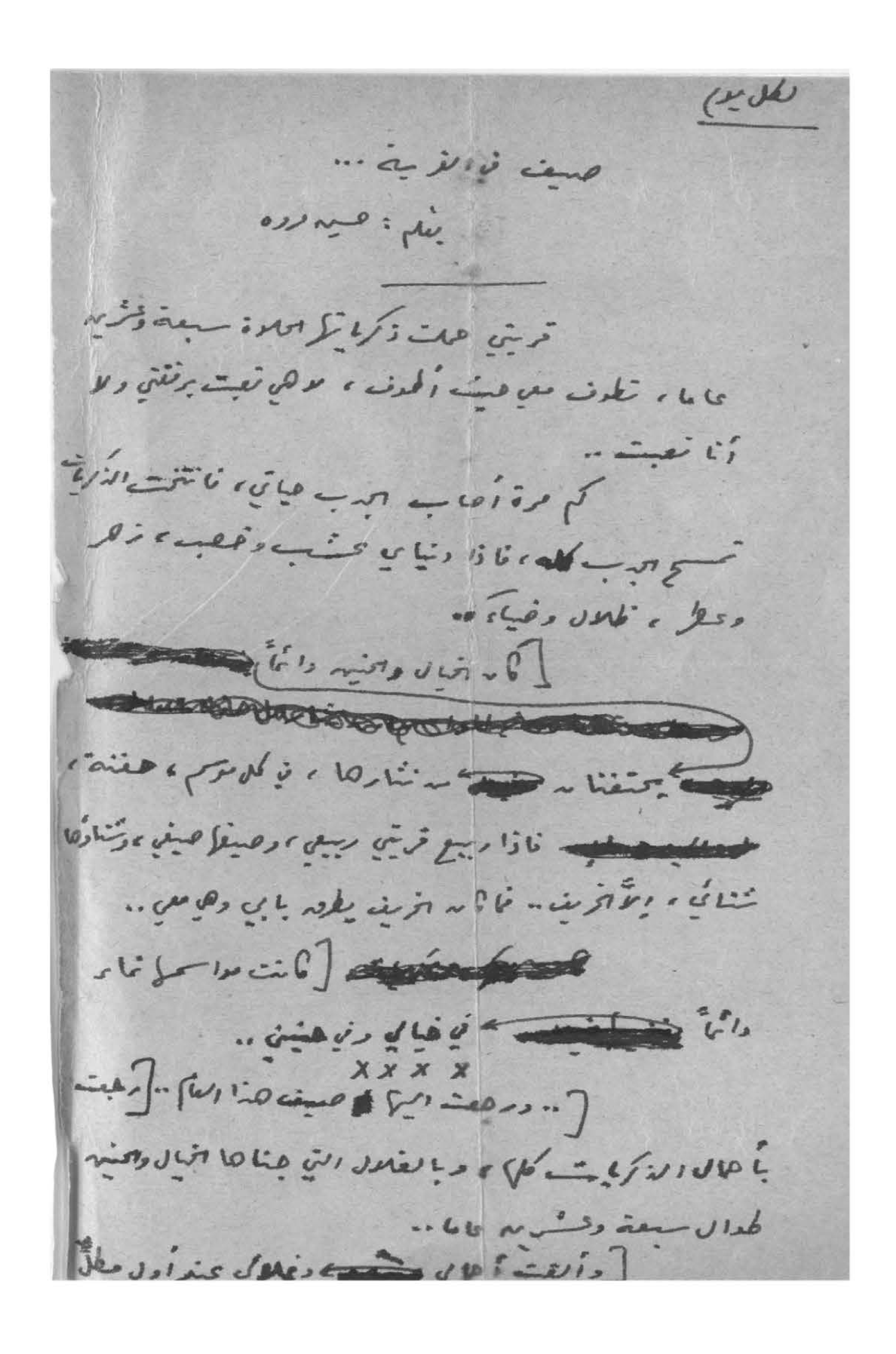
□ **هناك عدد متزايد من الباحثين في موضوعات ونصوص التراث، من يعنيك بين هؤلاء؟**

ـ عمل طيّب تيزيني كان أول ما ظهر في هذا الباب وهو عمل متميز في الكتابة التراثية ويمكن القول إن محمد عابد الجابري باحث مهم جداً وكذلك محمود أمين العالم.

لا أرى أسماء أخرى كتبت في صلب الموضوع بهذا القدْر من الاهتمام الجِدّي وبهذا القدْر من التخصص.

□ **على ماذا تعمل اليوم؟**

ـ أعمل في الجزء الثالث من كتاب «النزعات المادّية في الفلسفة العربية الإسلامية».



(لكل يوم)

صيف في القرية...

بقلم: حسين مروة

قريتي حملت ذكرياتي الحلوة سبعة وثلاثين
عاماً، تطوف معي حيث أطوف، ما هي تعبت برفقتي ولا
أنا تعبت..
كم مرة أصاب الجدب حياتي، فانتشرت الذكريات
تمسح الجدب كله، فإذا دنياي عشب وخصب، وزهر
وعطر، وظلال وضياء..
[ كان الخيال والحنين دائماً
يكتشفان ... من شذاها، في كل موسم، حفنة،
فإذا ربيع قريتي ربيعي، وصيفها صيفي، وشتاؤها
شتائي، وإلا الخريف.. فما كان الخريف يطرق بابي وهي معي..
[ كانت معي أسمعها تماماً
دائماً في خيالي وفي حنيني..

X X X X

[رجعت.. ] .. ورجعت إليها صيف هذا العام..
بأحمال الذكريات كلها، وبالغلال التي جناها الخيال والحنين
طوال سبعة وثلاثين عاماً..
[ وألقيت أحمالي ... وغلالي عند أول منزل

يشرف من [illegible] قريتي، كنت أستريح من [illegible] مطاف طويل شاق
وقد بلغ منتهى المطاف — وفتحت ذراعي وسعهما أعانق
الهواء، لكأنني أعانق السنين كلها التي فصلت بيني وبين منابت
الذكريات..
منذ هذا الصيف أعيش في دنياها أول مرة
بعد فرقة السنين الطوال، وبي لهفة أن أعيش [illegible] معها
هذه المرة، دون خيال ودون [illegible].. أن أعيش مع ترابها
وشجرها، مع أصحابها وعشبائها، مع ناسها الذين أذكر
- وما نسيت قط - [illegible] وجوههم، كل صباح ومساء،

**مقال من دون تاريخ ولم يكتمل**



صورة تعود إلى أوائل الخمسينيات



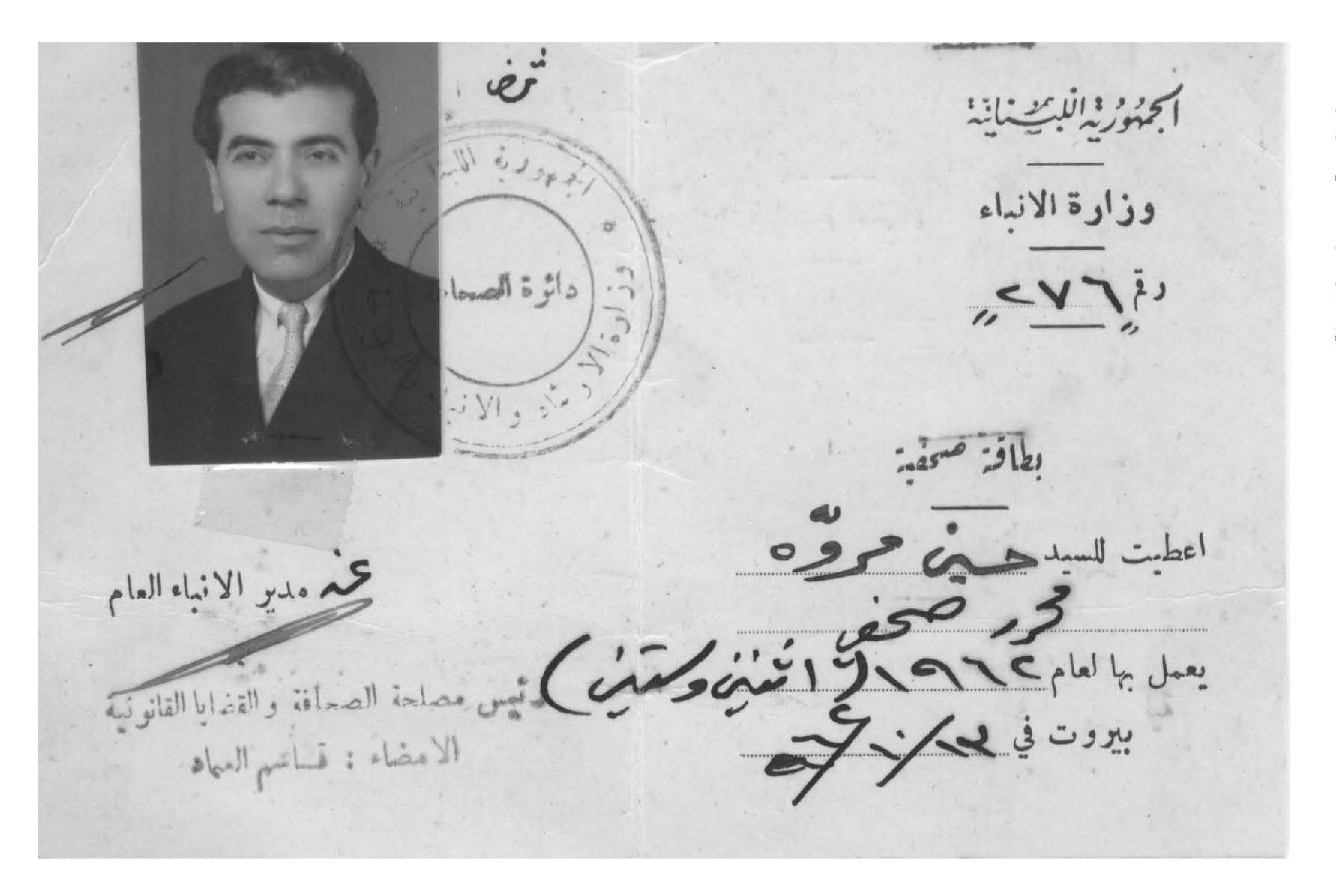
صورة في أوائل الستينيات



ناجي جواد إلى اليمين والشاعر العراقي بلند الحيدري إلى اليسار أواسط الخمسينات



في مؤتمر الأدباء الأفروآسيويين في الستينات إلى يسار حسين مروة توفيق يوسف عواد
وإلى يمينه د. سهيل إدريس



الجمهورية اللبنانية

وزارة الانباء

رقم ٢٧٦

بطاقة صحفية

اعطيت للسيد حسين مروّه

محرر صحفي

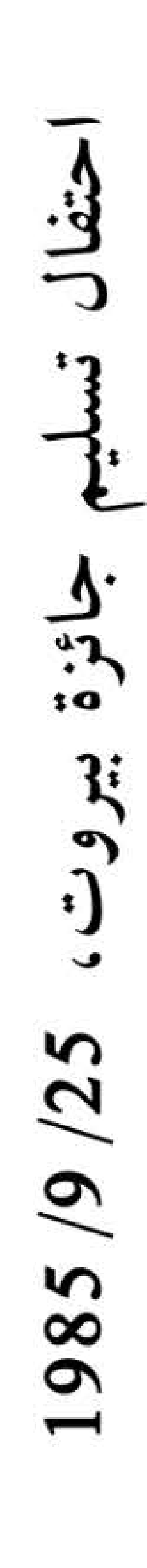
يعمل بها لعام ١٩٦٢ (اثنين وستين)

بيروت في

عنه مدير الانباء العام

رئيس مصلحة الصحافة والقضايا القانونية

الامضاء : قاسم العماد



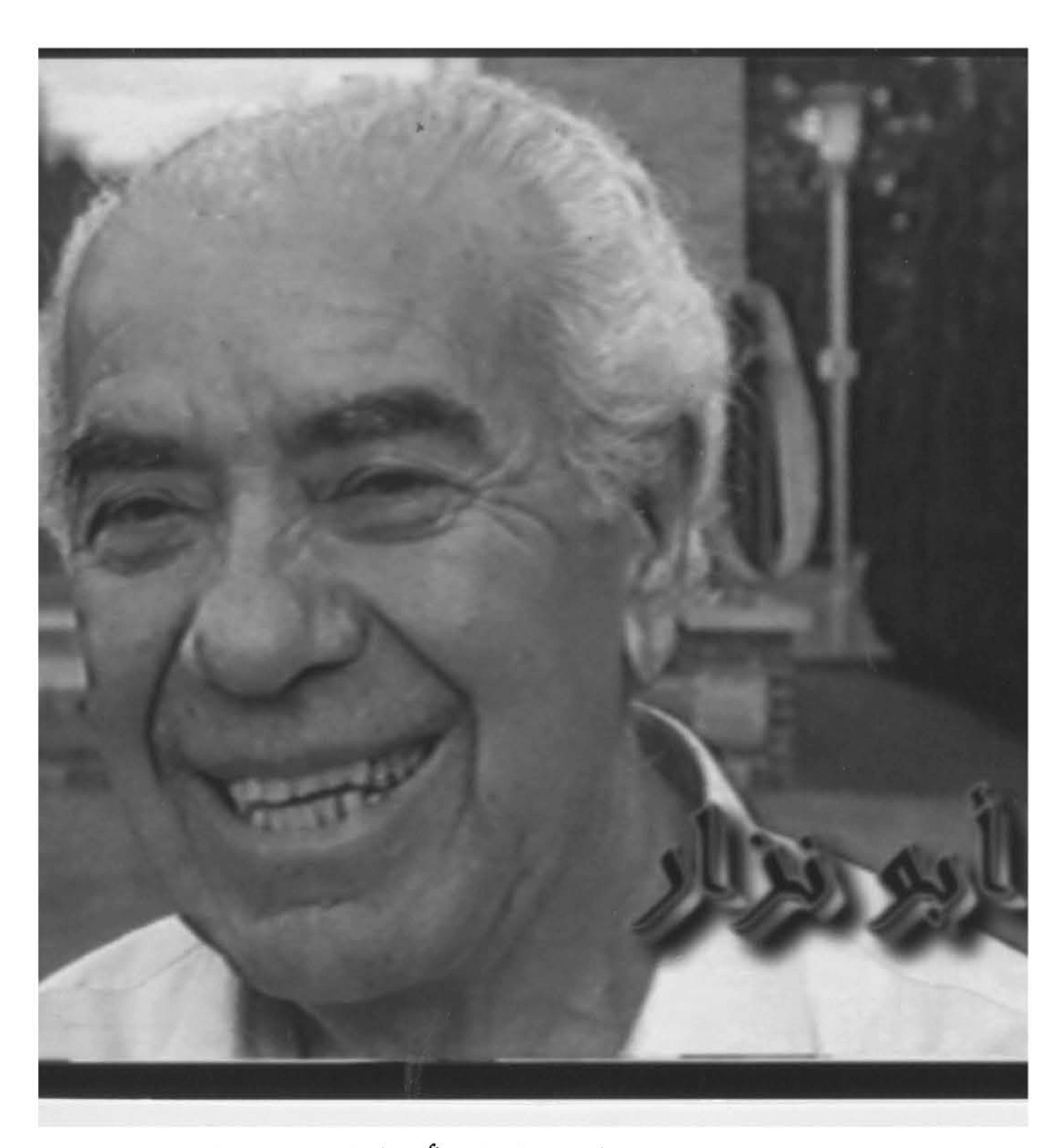
احتفال تسليم جائزة بيروت، 25/ 9/ 1985



احتفال تسليم وسام الآداب من مجلس الشعب اليمني، 4/ 12/ 1980



في احتفال ميلاده السبعين، 1980




**صورة صدرت على غلاف أسطوانة مدمجة**
**فيديو أنتجها ابن أخته غسان الحاج علي ناصر**

# المحتويات